من موضوعات سور القرآن الكريم

١٥

الإنسان

بين الأمل والأجل

في سورة الحجر

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

N
BAC

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الإنسان

بين الأمل والأجل

في سورة الحجر

من موضوعات سور القرآن الكريم
١٥

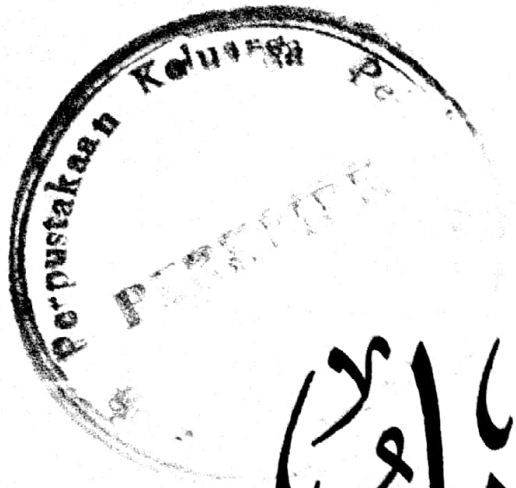

الإنسان

عند

بين الأمل والأجل

في سورة الحجر

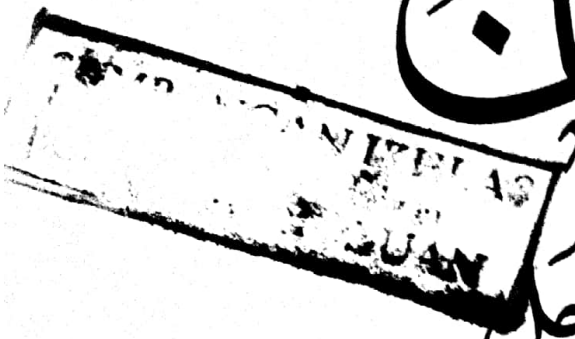

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

جميع الحقوق محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فهذا هو الكتاب الثامن في هذه السلسلة المباركة، التي تتحدث عن الوحدة الموضوعية لآيات السورة القرآنية الكريمة، وذلك من خلال ما يظهر لي من معاني كلماتها وآياتها.

ويتناول موضوع سورة الحِجْر حياة الإنسان المحدودة بالموت، وموقعها من الكون الكبير المحيط بها، ولقد أبرزت السورة الكريمة من خلال هذا الموضوع عدداً من الحقائق الهامة الضرورية للإنسان:

أولها: أن هناك ارتباطاً بين جميع أجزاء هذا الكون، وقد جعل الله تعالى هذا الارتباط قائماً على توازن دقيق، وهو السبب الأساسي، بتقدير الله تعالى، لاستمرار وجود المكونات، وعندما تقوم الساعة يختل هذا التوازن ويضطرب، وتتغير بتقديره تعالى النواميس والنظم التي كانت تضبط توازنه.

ولقد أدرك أنصار حماية البيئة من التلوث في العصر الحاضر جزءاً من هذه الحقيقة، ولهذا تراهم يبذلون جهوداً كبيرة لحماية الحياة

من أخطار التلوث الذي قد يؤدي بتقدير الله تعالى إلى حدوث خلل في التوازن القائم بين المكونات.

ثانيها: يجب على الإنسان أن يكون متوازناً في سلوكه وحياته مع طبيعة حياته الروحية والفكرية والمادية والاجتماعية، ويستهدف الإسلام في كل تشريعاته إلى إقامة مثل هذا التوازن في حياة الإنسان، وهو السبب الأساسي لسعادته وراحته.

ثالثها: للأمل تأثير كبير على سلوك الإنسان، وهو يعكس مدى التوازن القائم في حياته، وطول الأمل في الحياة بحيث يتجاوز حدودها، يؤدي إلى خلل واضطراب كبيرين في حياة الإنسان وسلوكه، ويؤدي أيضاً بتقدير الله تعالى إلى اضطراب وخلل في بيئة حياة الإنسان.

رابعها: الأمل في الله تعالى، هو الأمل الذي لا ينبغي أن يُحدّ بحدٍّ، فهو الضمانة الكبرى لجعل حياة الإنسان متوازنةً، لا إفراط فيها ولا تفريط، ولا يأس ولا قنوط، بشرط أن يكون هذا الأمل مقترناً بخشية الله تعالى وتعظيمه، والحذر من المسؤولية أمامه يوم القيامة.

تلك هي النقاط الأساسية البارزة، فيما يبدو لي، في سورة الحِجْر. وقد جاء الكتاب المخصص لها في أربعة فصول وتعقيب أخير:

الفصل الأول: لبيان تأثير الأمل على حياة الإنسان وسلوكه.

الفصل الثاني: لبيان التوازن في الكون والحياة.

الفصل الثالث: العقبة الأولى: الإنسان والشيطان، ونقاط الضعف البشري التي يستغلها الشيطان ليدخل الخلل على حياة الإنسان.

الفصل الرابع: العقبة الثانية: إبراهيم ولوط عليهما السلام والأمل في الله تعالى.

وأخيراً التعقيب عن القرآن الكريم ودوره في تحقيق التوازن في حياة الإنسان.

أسأله سبحانه أن يسدِّد خطانا، وينوِّر أبصارنا وبصائرنا، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه لنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عبد الحميد محمود طهماز

مكة المكرمة

١٣ / ٨ / ١٤٠٨ هـ

٣١ / ٣ / ١٩٨٨ م

الفَصْل الأوَّل
الأمَلُ والحَياة

﴿ الـــر ﴾

بدأت سورة الحِجْر بالتنويه بفضل القرآن الكريم، ولَفْت أنظار المخاطبين إلى حسن استماعه وتدبر آياته ومَعانيه بقوله تعالى: ﴿ الر، تلك آياتُ الكتاب وقرآن مُبين ﴾ [١].

وتشبه هذه البداية لسورة الحجر، بداية سورة يونس في قوله عزّ شأنه: ﴿ الر، تلك آياتُ الكتاب الحكيم ﴾.

وسبق أن قلت هناك: الأحرف المقطَّعة التي استهل الله تعالى بها السورة ذكر علماء التفسير أقوالاً كثيرة في معانيها، ودلَّت كثرة أقوالهم على حقيقة هامة، وهي أن الإنسان مهما تدبَّر كلمات الله تعالى فلن يقف على كل أسرارها، ولن يحيط بمعانيها، وهذا ما جعل كثيراً من المفسرين يرون أن معاني هذه الحروف مما استأثر الله العليم الحكيم بها، فهي من الآيات المتشابهة التي لا يعلم حقيقة معانيها إلا الله سبحانه الذي قال: ﴿ هو الذي أنزلَ عليك الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَمات هُنَّ أمُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ، فأما الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تأويله، وما يعلمُ تأويلَه إلاّ الله، والراسخون في العلم يقولون آمنَّا به كلٌّ من عند ربِّنا، وما يذَّكّر إلا أولُو الألباب ﴾(١).

(١) آل عمران: الآية ٧.

ورأى فريق آخر من علماء التفسير أن هذه الأحرف ذكرت في أول بعض السور لِلَفْت الأنظار إلى إعجاز القرآن الكريم وتنبيه الأسماع إليه، فقد كان المشركون ينفرون عند تلاوة القرآن، فلما نزلت (الٓمٓ)، و (الٓمٓصٓ)، و (الٓرٰ)، استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا إليه ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف، ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم، ففي هذه الحروف إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحدَّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم[1].

وقد انتصر ابن كثير، رحمه الله في تفسيره لهذا الرأي، فقال بعد أن ذكر العلماء الذين ذهبوا إليه: (ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة)[2].

وانظر على سبيل المثال إلى قوله سبحانه هنا: ﴿ الٓرٰ تلك آياتُ الكتاب وقرآنٍ مبين ﴾، أي: تلك السورة آيات الكتاب الكامل والمقروء، والمبيِّن للحق والباطل، والحلال والحرام، أو الظاهر إعجازه وإبداعه.

والآية تدل على أن القرآن مكتوب ومقروء، وقد حفظ الله تعالى بهاتين الصفتين القرآن الكريم، فهو محفوظ في الصدور ومكتوب في السطور، كما سيأتي معنا عند قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنا نحن نزَّلنا الذكر، وإنا له لحافظون ﴾.

وِدادة وحسرة

ثم شرعت الآيات الكريمة في بيان مضمون السورة وموضوعها

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ١/٢٩.

(٢) انظر ابن كثير: مقدمة التفسير.

الأساسي بقوله تعالى: ﴿ ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ [٢] أي سيأتي على الكفار وقت يتمنون فيه لو كانوا مسلمين، ولكن هذه الودادة والأمنية لا تنفعهم، لأنها جاءت في غير وقتها، فهي ودادة يغلب عليها الحسرة والندم، وأمنية تزيدهم حزناً وأسفاً.

وستكون هذه الودادة المشوبة بالحسرة والندم عندما ينزل الموت بهم ويعاينون العذاب، ولهذا جاء التعبير عنها بكلمة (ربما) التي تفيد التقليل، إذ الموت يبهتهم بسكراته وغشياته، فإذا ما أفاقوا منها وأدركوا شيئاً من الصحو، ودُّوا في لحظات الصحو والإفاقة القليلة لو كانوا مسلمين.

ويعقب هذه الودادة القليلة في الدنيا حسرات كثيرة يوم القيامة، فكلما عاين الكفار شيئاً من أهوال يوم القيامة ولوناً من ألوان النكال والعذاب في جهنم، وشاهدوا نجاة المسلمين منها، تمنَّوا وودُّوا لو كانوا مسلمين، فيوم القيامة هو يوم الحسرة لكثرة ما فيه من حسرة وندامة، ﴿ وأنْذِرْهم يومَ الحَسْرة إذ قُضي الأمرُ وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾[١] ﴿ ويومَ يعضُّ الظالمُ على يديه يقول: يا ليتني اتخذتُ مع الرسول سبيلاً... يا ويلتَا ليتني لم أتَّخذْ فلاناً خليلاً ﴾[٢].

ثم التفتت الآيات تخاطب النبي ﷺ: ﴿ ذَرْهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾: أي اتركهم يأخذوا حظوظهم من هذه الدنيا، ولا يخفَى ما في الخطاب من تحقير للكافرين وإهانة لهم، فلا عمل لهم في الدنيا إلا الأكل والتمتع بمتاعها المادي الزائل الحقير، تلك هي معقد آمالهم ومنتهى طموحاتهم، فما الذي يميزهم عن الحيوانات، ﴿ والذين كفروا

---

(١) مريم: الآية ٣٩.

(٢) الفرقان: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨.

يأكلون ويتمتعون كما تأكل الأنعامُ، والنارُ مَثْوىً لهم ﴾[1].

كما لا يخفى ما في هذا الأمر من تهديد ووعيد لهم، فهو كقوله تعالى: ﴿ كُلوا وتمتَّعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾[2].

الدنيا وسيلة لا غاية

والأكل والتمتع بما خلق الله تعالى في الحياة الدنيا من الطيبات الحلال ليس محظوراً ولا ممنوعاً، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا، كُلُوا مما في الأرض حلالاً طيباً، ولا تتَّبعوا خطواتِ الشيطانِ، إنه لكم عدوٌ مبينٌ ﴾[3] وقال أيضاً: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيباتِ ما أحلَّ الله لكم، ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدينَ. وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً، واتقوا اللهَ الذي أنتم به مؤمنون ﴾[4] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فالحلال الطيب غير محظور في الإسلام، إنما المحظور المحرم هو الإسراف في التمتع بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة، وهذا ما أراد الله سبحانه أن يبينه في قوله: ﴿ ويُلْهِهُمُ الأملُ ﴾ أي يشغلهم طول الأمل في الدنيا عن العمل للآخرة والاستعداد لها، فالدنيا وسيلة للآخرة ومطيّة لها، وليست غاية في نفسها، فالله سبحانه ما خلق الخلق وأحكمه وأبدعه للأكل والمتاع، يتنزه الله عن ذلك وهو الحكيم العليم.

وإنَّ كثيراً من الناس يخطئون عندما يجعلون الدنيا غاية لخلقهم

---

(١) محمد: الآية ١٢.

(٢) المرسلات: الآية ٤٦.

(٣) البقرة: الآية ١٦٨.

(٤) المائدة: الآيتان ٨٧ ـ ٨٨.

ووجودهم فيها، ويغفلون عن الآخرة وما ينتظرهم فيها من مسؤولية وحساب، ولهذا تراهم منصرفين بكل طاقاتهم وجهودهم إلى الدنيا، غافلين أو متغافلين عن الحكمة من خلقهم ووجودهم، وهي عبادته سبحانه وعمارة الأرض بطاعته.

وكما بدأت الآية بالتهديد والوعيد ختمت به أيضاً بقوله عزّ وجلّ: ﴿ فسوف يعلمون ﴾ [٣] سوء صنيعهم وعاقبة آمالهم.

آمال وآجال

وتدل الآية على أن كثرة التلذذ والتنعم في الدنيا يؤدي إلى طول الأمل فيها وقلة العمل للآخرة، فمن طال أمله قَلَّ عمله، لأن الأمل الطويل يشغل صاحبه عن أجله، ولهذا عدَّ النبيُّ ﷺ طولَ الأمل من الشقاء، فقال: «أربعة من الشقاءِ: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا»(١).

وكثيراً ما تتجاوز الآمال حدود الآجال، فمهما امتد عمر الإنسان فلن يعيش حتى يحقق كل آماله في حياته، وقد حذَّر النبي ﷺ من الوقوع في شراك الآمال الطويلة بأمثلة واقعية محسوسة، منها ما رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال:

«خطَّ النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخطَّ خطاً في الوسط خارجاً منه، وخطَّ خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا»(٢).

---

(١) رواه البزار في مسنده من حديث أنس.

(٢) رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله ﷺ خطّاً، وقال: «هذا الإنسان» وخطَّ إلى جنبه خطّاً، وقال: «هذا أجله» وخط آخر بعيداً منه، فقال: «هذا الأمل، فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب»[1].

وخير علاج لطول الأمل الإكثار من ذكر الموت لأنه حدود أعمارنا، ونهاية حياتنا في الدنيا، وهو ما أمر به ﷺ بقوله: «أكثروا ذِكْر هاذِمِ اللذات»[2]: أي قاطعها.

وقد أخبر ﷺ أن طول الأمل من أسباب هلاك الأمة المسلمة في آخر الزمن، فقال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهادة واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل»[3].

ولا شك أن قوله عليه الصلاة والسلام ينسحب على كثير من المسلمين في العصر الحاضر لشدة تأثرهم بالحياة المادية الغربية، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إنما أخشى عليكم ثنتين: طول الأمل، واتِّباع الهوى، فإن طول الأمل يُنسي الآخرة، واتِّباع الهوى يصدُّ عن الحق)[4].

الكتاب المعلوم

فلا ينبغي الاغترار بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة، فكل شيء فيها مآله إلى الزوال، وقد جعل الله تعالى له أجلاً محدوداً لا يتجاوزه، ﴿ وما أهلكنا من قريةٍ إلا ولها كتابٌ معلومٌ ﴾ [٤] أي أجل مقدر معلوم

(١) رواه البخاري والنسائي.
(٢) رواه ابن ماجه والترمذي وحسَّنه.
(٣) رواه الطبراني وابن أبي الدنيا والأصبهاني، وفي إسناده احتمال للتحسين، كما قال المنذري في الترغيب والترهيب.
(٤) تفسير الخازن ٣/٥٤٨.

لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿ ما تسبقُ من أمةٍ أجلَها وما يستأخرون ﴾ [٥] فلا تستطيع أي أمة، مهما بلغت في القوة والعلم والحضارة، أن تغيِّر من أجلها الذي قدَّره الحق سبحانه، لا تقديماً ولا تأخيراً. وجاء الإخبار عن التأخير بصيغة الاستفعال (يستأخرون) للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له[١]، فالإنسان مفطور على حب الحياة والبقاء، وكراهية الموت والفناء.

إعراض وجحود

ويؤدي الإسراف في التمتع بالدنيا وطول الأمل فيها إلى الإعراض عن الحق وجحوده، وهو ما فعله مشركو مكة عندما قالوا للنبي ﷺ على سبيل الاستهزاء والتهكم:

﴿ يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكْرُ ﴾: أي يا أيها الذي يدَّعي نزول القرآن عليه، ﴿ إنك لمجنونٌ ﴾ [٦] في دعوتك إلى عبادة الله الواحد وترك ما وجدنا عليه آباءنا، أو في ادِّعائك نزول القرآن عليك من الله تعالى، ويشبه قولهم هذا قول فرعون في نبي الله موسى عليه السلام: ﴿ إنَّ رسولكم الذي أُرسل إليكم لمَجْنونٌ ﴾[٢]، فمواقف المعاندين المعرضين عن الحق وأقوالهم واحدة، ولو اختلفت أزمانهم وبلادهم.

ثم بلغ بهم العناد والجحود إلى مطالبة النبي ﷺ أن ينزِّل الملائكة عليهم بالعذاب إن كان صادقاً في دعوته: ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة إنْ كنتَ من الصادقين ﴾ [٧]: أي هلاَّ تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك، كما حدث للأمم المكذبة من قبل[٣].

---

(١) روح المعاني ١١/١٥.

(٢) الشعراء: الآية ٢٧.

(٣) انظر تفسير البيضاوي وتفسير النسفي ٥٤٩/٣.

وردَّ سبحانه على طلبهم هذا بقوله: ﴿ ما ننزِّلُ الملائكة إلا بالحق ﴾ أي إلا بالحق الذي قدَّره سبحانه بمشيئته واقتضته حكمته، لا بحسب أهوائهم ومشيئتهم، ﴿ وما كانوا إذاً مُنْظَرين ﴾ [٨] ولو نزلت عليهم الملائكة لَعُذِّبوا وأُهْلِكوا ولم يُؤخَّروا وَيُمهلوا.

حفظ القرآن الكريم

ثم ردَّ سبحانه على استهزائهم بالنبي ﷺ، ووصفهم له بصفة الجنون، وإنكارهم نزول القرآن الكريم عليه، بقوله عزّ وجلّ: ﴿ إنا نحن نزَّلنا الذكرَ ﴾: أي القرآن الكريم، ﴿ وإنا لَهُ لَحافظون ﴾ [٩] من التحريف والتبديل والزيادة والنقص.

ففي الآية تأكيد يفيد الجزم والقطع على أنه سبحانه هو الذي نزَّل القرآن الكريم على النبي ﷺ، وأنه سبحانه هو الذي يتولَّى حفظ القرآن الكريم بما قدَّر له من أسباب الحفظ، وأول أسباب حفظه اختيار النبي الصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ليكون الأمين الأول للقرآن الكريم والحافظ له والمبلِّغ، فكيف تجرَّؤوا على مقامه الشريف، ووصفوه بصفة الجنون وقد اختاره الحق سبحانه لأمانة حمل القرآن الكريم وحفظه وتبليغه؟!.

فالقرآن الكريم محفوظ بحفظ الله تعالى رغم أنف المعاندين والجاحدين، مهما تعاقبت عليه الأزمان والحدثان، ولقد فعل سبحانه ما وعد بالآية الكريمة، وظهر بهذا أنه كلام الله تعالى الذي لا يتخلف عن الحقيقة.

وقد مرَّ على القرآن الكريم حتى الآن ما يزيد على أربعة عشر قرناً، وهو محفوظ بحفظ الله تعالى، لم يلحقه أي تغيير أو تبديل، ولا

زيادة ولا نقص، كما أخبر سبحانه: ﴿ وإنه لكتابٌ عزيزٌ، لا يأتيه الباطلُ من بَيْن يَدَيْه ولا من خَلْفه، تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] وتم حفظه رغم كثرة المعارضين له والمعاندين، ورغم ضخامة الأحداث والنكبات التي نزلت بالمسلمين على مدى تاريخهم، وسيبقى بإذن الله محفوظاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

محاولات فاشلة

لقد باءت بالفشل كل محاولات أعداء الإسلام لكي ينالوا من القرآن الكريم ما يريدون من تحريف وتبديل، منذ نزوله وحتى العصر الحاضر، مع العلم أنهم نجحوا في الافتراء على سُنَّة رسول الله ﷺ، مما حمل علماء المسلمين على بذل جهود علمية مُضْنية حتى تمكنوا بحمد الله من تمحيص السنة وتنقيتها، كما نجحوا في إحداث الفتن بين المسلمين، وتقسيمهم إلى فرق وشيع وأحزاب، ونجحوا أيضاً في فتنة كثير من المسلمين عن دينهم وأخلاقهم. ولكنهم لم يستطيعوا بحمد الله أن يحدثوا في القرآن الكريم أي تغيير أو تحريف، رغم شدة مكرهم وقوة كيدهم.

قال سيد قطب رحمه الله: (لقد بذل أعداء هذا الدين - وفي مقدمتهم اليهود - رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد، في الكيد لدين الله، وقدروا على أشياء كثيرة... ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد - والظروف الظاهرة كلها مهيأة له - لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ... لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله ﷺ، مجرد وعد، أما هو اليوم من وراء كل تلك الأحداث الضخام، ومن وراء كل تلك القرون الطوال، فهو المعجزة الشاهدة

(١) فُصِّلت: الآيتان ٤١ - ٤٢.

بربانية هذا الكتاب، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول)[1].

انقطاع الوحي وتمام النعمة

لقد تولى سبحانه حفظ القرآن الكريم، فبقي محفوظاً لم يلحقه باطل من بين يديه ولا من خلفه، بينما لم يتكفل سبحانه بحفظ الكتب المنزَّلة قبل القرآن كالتوراة والإنجيل، وجعل حفظها موكولاً بأحبار اليهود والنصارى ورهبانهم، فغيَّروا فيها وبدَّلوا، وأحدثوا فيها من التحريف ما أحدثوا، حتى أصبحت متعارضة فيما بينها ومتناقضة، كما أصبحت مليئة بالأكاذيب والضلالات التي يتنزه عنها كلام العقلاء من الناس، بَلْه كلام الله تعالى الحكيم العليم الذي قال: ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هُدَىً ونورٌ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربَّانيون والأحبارُ بما استُحفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء، فلا تخشَوْا الناس واخْشَوْنِ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً، ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[2].

وجاء حفظه سبحانه للقرآن الكريم حجة قائمة على الناس إلى قيام الساعة، تلزمهم بالإسلام ديناً وشريعة، إذ اقتضت مشيئته سبحانه أن يكون الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن يختم الوحي بنزول القرآن الكريم، فلا نبي بعده أبداً ولا وحي، انقطع الوحي وتمت كلماته سبحانه صدقاً وعدلاً، تنير الطريق للناس، وتبين لهم معالم الحق والهدى إلى قيام الساعة: ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم، ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيين، وكان الله بكل شيء عليماً ﴾[3].

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/٢١٢٨.

(٢) المائدة: الآية ٤٤.

(٣) الأحزاب: الآية ٤٠.

وقال ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي»[1]، وقال أيضاً: «إنَّ لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[2].

البشارة الخالدة

وفي قوله سبحانه: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكرَ وإنا له لحافظون ﴾ تثبيت كبير للنبي ﷺ في مواجهته لكيد المشركين ومكرهم، فالآية مكية نزلت على النبي ﷺ وهو يواجه أذى المشركين وجحودهم وعنادهم.

كما أن في الآية بشارة للنبي ﷺ وطمأنينة على بقاء الإسلام، فلن يستطيع أحد أن ينال من هذه الدعوة الجديدة الوليدة، فهي مستمرة وباقية بعد أن تكفل الله تعالى بحفظها وبقائها.

وتطمئنه أيضاً على حفظه للقرآن الكريم وحسنِ تلقِّيه له من الوحي، فهي كقوله تعالى: ﴿ لا تُحَرِّك به لسانك لتعجلَ به. إنَّ علينا جَمْعه وقرآنَه. فإذا قرأناه فاتَّبِعْ قرآنَه. ثم إنَّ علينا بيانَه ﴾[3]، فَلْتَقَرَّ عينُك يا رسول الله، وليطمئن قلبك، فكلمات الله تعالى التي أنزلها عليك وجمعها في قلبك وبينها بلسانك، ستبقى ما بقي الزمان، حجة قائمة تدل الناس على صدق نبوتك وصحة رسالتك، صلّى الله عليك وسلم وبارك وعلى آلك وأصحابك ما بقيت كلمات الحق في الأرض تهدي الحائرين وترشد الضالين.

---

(١) الحديث رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) متفق عليه. انظر تفصيل الموضوع في كتاب: النبي ﷺ وأزواجه للمؤلف.

(٣) القيامة: الآيتان ١٦ ـ ١٩.

قلوب المجرمين

ثم تابعت الآيات الكريمة تسلية النبي ﷺ عما يلقى من أذى المشركين ومكرهم: ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شِيَع الأوَّلين ﴾ [١٠]: أي أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أممهم، والشيع: جمع شيعة، وهي الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة[١]، أصلها من فعل ـ شاع ـ المتعدِّي، بمعنى تبع، لأن بعضهم يشايع بعضاً ويتبعه.

﴿ وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزءون ﴾ [١١]، فما تلقاه من هؤلاء المكذبين المعاندين لقي مثله الأنبياء والمرسلون من أقوامهم.

ثم أخبر سبحانه عن تمام مشيئته وكمال قدرته، وأنه بمشيئته وقدرته يدخل الاستهزاء والتكذيب في قلوب المجرمين من مشركي مكة بسبب عنادهم واستكبارهم، فقال: ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ [١٢].

والسَّلك: إدخال الشيء في الشيء، والمعنى: فكما سلكنا التكذيب والاستهزاء في قلوب شِيَع الأولين، كذلك نسلكه في قلوب المجرمين من مشركي مكة[٢] فقد بينت الآية ما انطوت عليه قلوب المجرمين من استهزاء وتكذيب.

ونتيجة السَّلْك ﴿ لا يؤمنون به ﴾ أي بالقرآن أو بمحمد ﷺ، ﴿ وقد خَلَت سنة الأولين ﴾ [١٣] أي: وقد مضت سنته تعالى بإهلاك المكذبين المعاندين، ففي الآية وعيد وتهديد لمشركي مكة.

---

(١) تفسير القرطبي ٦/١٠.

(٢) انظر مجموعة التفاسير ٥٥١/٥.

باب من السماء

وما ظلمهم سبحانه بإدخال الاستهزاء والتكذيب في قلوبهم، لعلمه سبحانه شدة عنادهم وتكبرهم، قال عزّ شأنه: ﴿ كذلك نطبعُ على قلوب المجرمين ﴾[1] وقال أيضاً: ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾[2].

ثم بيَّن سبحانه شدة عنادهم واستكبارهم بجحودهم للمعجزات الحسية المشاهدة، فقال: ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرُجون ﴾ [١٤] أي يصعدون، قال ابن كثير رحمه الله: (يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: ﴿ إنما سُكِّرت أبصارُنا ﴾[3]، أي سدت أبصارنا، أو أخذت، أو سُحرت، أو صارت سكرى، أو غُشيت وغُطيت، وكلها أقوال متقاربة تدل على أنهم أرادوا أنه فسدت أبصارنا واعتراها خلل في إحساسها كما يعتري عقل السكران فيختل إدراكه[4].

ثم أضربوا عن قولهم (سكرت أبصارنا)، وادعوا أنهم مسحورون: ﴿ بل نحن قوم مسحورون ﴾ [١٥]: أي سحرهم محمد ﷺ، وهذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان[5]، كما أنه يرد اقتراحهم رؤية الملائكة الذي سبق

---

(١) يونس: الآية ٧٤.

(٢) البقرة: الآية ٨٨. انظر تفصيل الموضوع في كتاب: الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس للمؤلف.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٠٩.

(٤) روح المعاني ١٥/٢٠.

(٥) فتح القدير ٣/١٢٣.

الإخبار عنه في قوله تعالى: ﴿ لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾.

فالآية سيقت لبيان عناد المشركين والرد عليهم، فهي كقوله تعالى: ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قِرْطاس فَلَمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سِحرٌ مبينٌ ﴾[1].

قال سيد قطب رحمه الله: (يكفي تصورهم على هذا النحو لتبدو المكابرة السمجة، ويتجلى العناد المزري، ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء، ويثبت أن ليس الذي ينقصهم هو دلائل الإيمان، وليس الذي يمنعهم أن الملائكة لا تنزل، فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة، إنما هم قوم مكابرون، مكابرون بلا حياء وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف)[2].

وقول بعض الدارسين لظواهر الإعجاز العلمي في القرآن: إن فيها حقيقة علمية يؤكدها ما نُقل إليه عن أحد رواد الفضاء، أن بصره قد سُدَّ عندما صعد إلى الفضاء. قوله هذا يخرج الآية عن مقصدها الأساسي، بل يجعل للمعاندين من المشركين عذراً في قولهم (سُكِّرت أبصارنا) ما دام قولهم يحمل هذه الحقيقة العلمية، وهذا يفسد المعنى المراد فساداً كبيراً.

فالواجب علينا الحذر من الوقوع في مثل هذا، فلا ينبغي تحميل كلمات القرآن معاني تخرجها عن مقصدها الأساسي الذي سيقت من أجله، كما لا ينبغي تفسير الكلمة القرآنية بمعزل عن سياقها وموضعها من الآية القرآنية.

---

(١) الأنعام: الآية ٧.

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢١٢٩.

الفصل الثاني
التوازن والحياة

تمهيد

عندما ينسى الإنسان أن حياته محدودة بأجل معين لا يتقدم ولا يتأخر، وأن مواهبه وقواه الجسدية والفكرية محدودة أيضاً ومقدّرة بمقادير معينة، يقع حينئذ الخلل في حياته وسلوكه، فيغتر بنفسه، وتطول آماله بحياته، وتطغى عليه أهواؤه وشهواته، ويمتد الخلل والفساد إلى علاقة الإنسان مع غيره من الناس وإلى العالم المحيط به.

وما ينطبق على الإنسان ينطبق أيضاً على كل المخلوقات والمكونات، فالخالق واحد، بل إن بين الإنسان والمكونات ارتباطاً يدل على كمال حكمة الله تعالى وعلمه، فقد جعل الله لجميع المكونات والمخلوقات أعماراً وآجالاً محددة، وهذا التقدير مرتبط بالنواميس الكونية التي جعلها سبحانه بقدرته ومشيئته أسباب استمرار الحياة وبقاء المخلوقات إلى الأجل المحدد لها.

فثمة ارتباط وتوازن بين مقادير المخلوقات وبين أعمارها وآجالها، يدل على حكمة الخالق وقدرته وعلمه، ولقد كشف العلم الحديث بعض أسرار هذا الارتباط والتوازن، ففي مجال الكواكب والأجرام السابحة في الفضاء وجدوا أن حركتها وسرعتها مرتبطة بأحجامها وكتلها، ووجدوا أن الجاذبية التي جعلها الله سبحانه وتعالى بين النجوم والأجرام، والتي تحفظ بتقديره سبحانه التوازن بين هذه

الأجرام الكبيرة، وتضبط حركتها على أفلاكها، مرتبطة أيضاً بأحجامها وكتلها وكثافتها، ولذلك قالوا: إن قانون الجاذبية التثاقلية، التي توصل إليها «نيوتن» هو: كل جسم مادي يجذب أي جسم إليه بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتي الجسمين وعكس مربع البعد بينهما[1].

وهذا يدل على أن أي نقص أو زيادة في كتلتي هذه الأجرام يؤدي إلى خلل في مواقعها وحركتها، يمتد تأثيره إلى التوازن القائم بينها، ويظهر أثره على استمرار الحياة بسبب ما يحدث من خلل في نواميسها.

ولقد ركزت آيات سورة الحجر التالية على التقدير الذي قدره الله تعالى للمكونات، وما يؤدي إلى التوازن القائم بينها، وارتباط كل ذلك بحياة الإنسان المحدودة على الأرض، وكل ذلك أدلة قطعية الدلالة على وحدانية الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته سبحانه.

السماء في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿ولقد جعلنا في السماء بُروجاً، وزَيَّناها للناظرين﴾ [١٦] هل المراد من السماء حقيقتها وجرمها المادي أو جهتها؟ كلا المعنيين ممكن هنا، ولا نستطيع ترجيح أحدهما بدون مرجِّح، ولا يقال: الأصل حمل الكلام على معناه الحقيقي، لأن القرآن الكريم أورد كلمة (السماء) لكلا المعنيين في مواضع كثيرة، فمثلاً الآيات التي أخبرت عن إنزال المطر من السماء أرادت جهة السماء، لأن المطر ينزله الله تعالى من السحاب الذي هو في جهة السماء، إذ جاء التصريح بهذا المعنى في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله

---

(١) علم الفلك لمحمد رضا مدور.

تعالى: ﴿ الله الذي يُرسلُ الرياح فتُثير سحاباً، فيبسطه في السماء كيف يشاء، ويجعله كِسَفاً، فترى الوَدْق يخرج من خلاله، فإذا أصابَ به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾[1].

ومنها أيضاً قوله عزّ شأنه: ﴿ ألم ترَ أن الله يُزْجي سحاباً، ثم يؤلف بينه، ثم يجعلُه رُكاماً، فترى الوَدْقَ يخرج من خلاله... ﴾ الآية[2].

واستناداً إلى مثل هذه الآيات نستطيع أن نقول: إن المراد من السماء في مثل قوله تعالى: ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴾[3] السحاب الذي في جهة السماء.

وهناك آيات أرادت حقيقة السماء وجِرْمها، كقوله تعالى: ﴿ إذا السماءُ انفطرت ﴾[4]، ﴿ وإذا السماءُ انشقت ﴾[5] ﴿ يوم نطوي السماءَ كطيِّ السِّجِل للكتب، كما بدأنا أولَ خَلْق نُعيده ﴾[6].

إنما الذي نستطيع تأكيده والجزم به أن حقيقة السماء مغايرة لحقيقة النجوم والكواكب، للمغايرة بينهما في آيات كثيرة، كقوله سبحانه: ﴿ إذا السماءُ انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وقوله أيضاً: ﴿ إنا زيَّنا السماءَ الدنيا بزينةٍ آلكواكب ﴾[7] وقوله عزّ شأنه: ﴿ ولقد

---

(١) الروم: الآية ٤٨.
(٢) النور: الآية ٤٣.
(٣) الفرقان: الآية ٤٨.
(٤) الانفطار: الآية ١.
(٥) الانشقاق: الآية ١.
(٦) الأنبياء: الآية ١٠٤.
(٧) الصافات: الآية ٦.

زيَّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجوماً للشياطين ﴾[1] ولا شك أن الزينة تغاير المزيَّن.

الجمال في المكونات

وقوله سبحانه: ﴿ ولقد جعلنا في السماء بُروجاً ﴾: أي نجوماً، أو مواقع النجوم ومنازلها التي أقسم الله تعالى بها في قوله: ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لَقَسمٌ لو تعلمون عظيم ﴾[2] أو منازل الشمس والقمر.

وأصل البروج في اللغة الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها، ولهذا تسمى القصور الكبيرة العالية بالبروج، جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ أينما تكونوا يُدْرِكْكُم الموت ولو كنتم في بُروج مُشَيّدة ﴾[3].

﴿ وزيَّناها للناظرين ﴾ [١٦] أي زينا السماء للناظرين إليها بأبصارهم، كقوله سبحانه الذي سبق ذكره: ﴿ إنا زيَّنا السماء الدنيا بزينةٍ ٱلكواكب ﴾ أو زيناها للناظرين إليها نظر التفكر والتدبر، المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها جلّ شأنه[4].

ولا شك أن جمال المخلوقات يدل على وجود خالقها وكمال حكمته ومشيئته، لما فيه من دلالة على الإبداع والاختيار والتنسيق، وكثيراً ما نرى الآيات الكريمة تنبهنا إلى ظاهرة الجمال المبثوثة في كل المكونات كدليل على وجوده سبحانه ونعمته وفضله، قال تعالى: ﴿ والأنعام خلقها لكم، فيها دِفءٌ ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها

(١) الملك: الآية ٥.
(٢) الواقعة: الآية ٧٥ ـ ٧٦.
(٣) النساء: الآية ٧٨.
(٤) روح المعاني ١٥/٢٣.

جَمَال حين تُريحون وَحين تَسْرَحون ﴾[1] وقال أيضاً في جمال النبات: ﴿ وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ ورَبَتْ وأنبتتْ من كل زَوْج بَهِيج ﴾[2].

وتأمل كيف لفت سبحانه الأنظار إلى إبداعه في اختلاف ألوان الثمار والجبال، وما يترتب على هذا الإبداع من جمال، فقال: ﴿ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماءً، فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها، ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحُمْر مختلفٌ ألوانُها، وغرابيبُ سُودٌ ﴾[3]، فسبحانه ما أعظم حكمته وما أجلَّ رحمته!!.

حرس في السماء

جمع الله تعالى للسماء الجمال المادي والجمال المعنوي، فقد زينها بالكواكب والنجوم، وحفظها أيضاً من رجس الشياطين ودنسهم، فقال عزّ شأنه: ﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ [١٧] مطرود عن كل خير، فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها، وبالغاوين من أبناء آدم فيها، أما السماء فهو مطرود عنها مطارد، لا ينالها ولا يدنسها، إلا محاولة منه تُرَدُّ كلما حاولها[4]. بدليل قوله سبحانه:

﴿ إلاّ من استرق السمع، فأتبعه شهابٌ مبينٌ ﴾ [١٨] واضح ظاهر.

والملاحظ أنه سبحانه كلما لفت الأنظار إلى حكمته وإبداعه في تزيين السماء، ذكر بعده حفظه للسماء من الشياطين، كما في هذه الآيات، وفي قوله أيضاً الذي سبق ذكره: ﴿ولقد زيَّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رُجوماً للشياطين ﴾، وقوله أيضاً الذي مرّ معنا:

(١) النحل: الآيتان ٥ ـ ٦.
(٢) الحج: الآية ٣.
(٣) فاطر: الآية ٢٧.
(٤) في ظلال القرآن ٤/٢١٣٣.

﴿ إنا زيَّنا السماء الدنيا بزينةٍ آلكواكب، وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾.

فكما جعل سبحانه الكواكب زينة للسماء الدنيا، جعلها أيضاً مراكز لحراسة السماء وحفظها من الشياطين. وَرَدَ ذلك صراحة على لسان الجن في قوله تعالى: ﴿ وأنَّا لَمَسْنا السماء فوجدناها مُلِئتْ حَرَساً شديداً وشُهُباً. وأنا كنَّا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجدْ له شِهاباً رَصَداً. وأنا لا نَدري أشرٌّ أُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رَشَداً ﴾[1].

ويظهر لنا من خلال هذه الآيات أن السماء ما كانت محروسة قبل البَعْثة النبوية ونزول القرآن الكريم، إذ كان بعض الجن والشياطين يصعدون إلى السماء، يسترقون السمع من الملائكة. وهل كانوا يصعدون حتى يصلوا إلى جرم السماء، أم كانوا يصعدون في جو السماء وجهتها؟ النصوص القرآنية مطلقة تحتمل هذا وهذا، وقد روي عن النبي ﷺ ما يرجح الثاني، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه، فتوحيه إلى الكُهَّان، فيكذبون مع الكلمة مائة كذبة من عند أنفسهم»[2].

الشهب المشتعلة

ويطلق الشهاب في اللغة على الشعلة الساطعة من النار الموقدة، قال تعالى: ﴿ إذ قال موسى لأهله إني آنَسْتُ ناراً، سآتيكم منها بخبر، وآتيكم بشهابٍ قَبَسٍ لعلكم تصطلون ﴾[3].

(١) الجن: الآيات ٨ ـ ١٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه.

(٣) النحل: الآية ٧.

ويطلق أيضاً على الكوكب المضيء اللامع، وعلى بعض الأجزاء الصغيرة الملتهبة المنفصلة عن بعض الكواكب والنجوم الملتهبة، وهذا المعنى هو المراد هنا في قوله: ﴿ فأتْبَعه شهابٌ مبين ﴾.

ومن الثابت علمياً أن بعض النجوم وخاصة القريبة من الشمس ذات حرارة عالية ملتهبة، وما ينفصل عنها من أجزاء ملتهب مثلها، وتزداد التهاباً وحرارة عندما تصل إلى جو الأرض وتحتك بهوائها.

وليس من الضروري أن تكون الشهب لرمي الشياطين المسترقين للسمع فقط، إذ من الممكن أن يكون لها حِكَمٌ أخرى لا نعلمها، الله سبحانه يعلمها.

الجبال الرواسي

ثم تنقلنا الآيات الكريمة من السماء وبروجها وزينتها إلى الأرض وجبالها ونباتها ﴿ والأرضَ مَدَدْناها ﴾: أي بسطناها ليمكن العيش عليها والانتفاع بها، فهو كقوله تعالى: ﴿ والأرضَ فرشناها، فنِعْمَ الماهدون ﴾[1]، ولا يلزم من ذلك نفي كرويتها، كما قال بعض قدماء المفسرين، كما أن الكرة العظيمة لعظمها تُرى كالسطح المستوي[2].

﴿ وألْقَيْنا فيها رَواسي ﴾: أي جبالاً ثابتة. وقوله ﴿ ألقينا ﴾ يدل على عظمة القدرة الإلهية التي أصبحت الكتل الجبلية الهائلة بالنسبة لها أشياء صغيرة تُلقى على الأرض، كما تدل على أن الجبال أضيفت إلى الأرض وثُبتت فيها كما يثبت الوتد في الأرض. وقد جاء وصف جبال بالأوتاد في قوله تعالى: ﴿ والجبال أوتاداً ﴾[3].

(١) الذاريات: الآية ٤٨.
(٢) انظر التفسير الكبير ١٩/١٧٤، وروح المعاني ١٥/٢٨.
(٣) النبأ: الآية ٧.

واتفقت الآيات بهذا مع ما يقوله علماء طبقات الأرض عن دور الجبال في تثبيت القشرة الأرضية، وعن وجود جذور للجبال في داخلها تعمل على تثبيتها وتمنع انزلاقها.

وتدل كلمة (ألقينا) أيضاً على أن الجبال خُلقت بعد خلق الأرض، إلا أن استعمال كلمة (جعل) بدل (ألقى) في بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم ﴾[1]، جعل بعض المفسرين يرون احتمال أنه سبحانه خلق الأرض بدون الجبال أولاً، ثم خلق فيها الجبال. قال الفخر الرازي رحمه الله: فإن قيل: أتقولون إنه تعالى خلق الأرض بدون الجبال فمالت بأهلها، فخلق فيها الجبال، أو تقولون: إن الله خلق الأرض والجبال معاً، قلنا: كلا الوجهين محتمل[2].

لكن الحديث الشريف يرجح الوجه الأول: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله عزّ وجلّ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»[3].

التقدير والتوازن

﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ [١٩]: أي مقدَّر بمقدار

(١) الأنبياء: الآية ٣١.

(٢) التفسير الكبير ١٩/١٧٥.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

معين معلوم حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه، فكل شيء في الأرض، وفي الكون أيضاً، مقدَّر بمقدار معين محدود لا يتجاوزه، قدره العليم الحكيم على وفق النواميس التي جعلها سبحانه أسباب استمرار الحياة، وهذه النواميس ليست حتمية ولازمة بنفسها، إنما حتميتها وثباتها واستمرارها متعلق بمشيئته سبحانه وقدرته. فالتدبير والتقدير له سبحانه، كما أن الخلق له سبحانه وحده.

قال تعالى: ﴿ إنَّ ربَّكم الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام، ثم استوى على العَرْش، يدبِّر الأمرَ، ما من شفيعٍ إلا من بعد إذنه، ذلكم الله ربُّكم فاعبدوه، أفلا تذكَّرون ﴾[1].

وقد كشف العلم الحديث بعض حكم التقدير والتحديد وارتباطه بنواميس استمرار الحياة التي قدرها سبحانه، فثمة توازن عجيب في مجال التنفس بين الحيوانات والإنسان والنبات والبحر، فالإنسان والحيوان يستنشق من الهواء الأكسجين ويلقي ثاني أوكسيد الكربون، ويقابله النبات الذي يأخذ ثاني أوكسيد الكربون ويلقي الأوكسجين، وإذا زادت نسبة الأوكسيد في الهواء امتص البحر الزيادة وأعاد التوازن إلى الهواء.

ولو كانت الأرض أقل وزناً مما هي عليه لنقصت جاذبيتها وابتعد الهواء عن جوها المحيط بها وعدمت الحياة عليها، ولو كانت أثقل مما هي عليه لازدادت جاذبيتها، وتعذرت الحركة فوقها، وازداد وزن الإنسان بشكل يعطل نشاطه وحيويته ويؤثر على حركته، فاعلم عظمة حكمته سبحانه، وبديع صنعه، وإحاطة علمه، وسراً من أسرار إعجاز كتابه في قوله عزّ شأنه: ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾.

(١) يونس: الآية ٣. انظر الكتاب السابع من هذه السلسلة: الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.

فكل ما في الأرض يتناسب تماماً مع حاجات الناس المعيشية، مما يدل على فضله سبحانه وإحسانه عليهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ بما يسر لكم فيها من أسباب الكسب وتحصيل الرزق، ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ [٢٠]، وجعل لكم أيضاً الأولاد والخدم والدواب والأنعام، فلكم منافعهم وعلى الله سبحانه أرزاقهم لا عليكم[١] فما أعظم فضله سبحانه وإحسانه!.

خزائنه سبحانه

ولا تظنَّ أن تقدير المخلوقات بمقادير معينة محددة يدل على أن خزائنه سبحانه محدودة، فخزائنه سبحانه لا تحدها حدود، ولا تحيط بها أوزان ولا أعداد، لأنها آثار قدرته سبحانه، قال تعالى: ﴿ وإنْ من شيء إلا عندنا خزائنُه ﴾: أي ما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما خلقنا منه، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره سبحانه، أو شبَّه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد[٢].

وبهذا بيَّن سبحانه سعة قدرته وكمال غناه، ثم بيّن بعد ذلك كمال حكمته وتمام مشيئته، فقال: ﴿ وما ننزله إلا بقَدَر معلوم ﴾ [٢١] حددته مشيئته واقتضته حكمته سبحانه.

فإذا ما ضيّق الله تعالى عليك الرزق، فلا تظنَّ أن ذلك التضييق بسبب قلة ما عنده سبحانه، إنما ضيّقه عليك لحكمة يعلمها، بيّن بعضها بقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولو بسط الله الرزقَ لعباده لبغَوْا في الأرض،

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٠٩.
(٢) تفسير البيضاوي ٥/٥٥٦.

ولكن ينزلُ بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ ﴾[1].

وقولـه أيضاً: ﴿ نحن قَسَمنا بينهم معيشتَهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضَهم فوق بعض درجاتٍ، ليتخذَ بعضُهم بَعْضاً سُخْرياً، ورحمةُ ربك خير مما يجمعون ﴾[2].

فخزائنه سبحانه ملأى لا ينقصها عطاؤه وإحسانه، قال ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا يُغيضها ـ أي ينقصها ـ نفقة، سَحّاءُ الليل والنهار[3]، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموٰات والأرض، فإنه لم يُغضْ ما في يمينه»[4].

وجـاء في الحديث القـدسي: «يا عبـادي، لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، قاموا في صعيد وحيد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط ـ الإبرة ـ إذا أُدخل البحر»[5].

وهذا التمثيل تقريب للأذهان، ومعناه لا ينقص شيئاً أصلاً كما سبق في الحديث الذي قبله، لأن ما عند الله لا يدخله نقص، إذ هو من رحمته وكرمه، وأثر من آثار مشيئته وقدرته.

الرياح اللواقح

﴿ وأرسلنا الرياحَ لَواقح ﴾: أي أرسلنـا الرياح حوامل تحمل المطر، فاللواقح: جمع لاقح، وهي الأنثى التي قبلت اللقاح فحملت

(١) الشورى: الآية ٢٧.
(٢) الزخرف: الآية ٣٢.
(٣) أي فياضة بالعطاء في كل الأوقات.
(٤) متفق عليه.
(٥) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم، باب: تحريم الظلم.

الجنين، ووصف سبحانه الرياح بكونها لواقح، لأنها حوامل تحمل المطر، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وهو الذي يرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يَدَيْ رحمته، حتى إذا أقلّتْ سَحاباً ثقالاً سُقْناه لبلد ميِّت، فأنزلنا به الماءَ، فأخرجنا به من كل الثمراتِ، كذلك نُخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[1].

ومعنى ﴿ أقلَّتْ سحاباً ﴾ حملت سحاباً، ولهذا يقال للريح التي لا تحمل خيراً عقيم: ﴿ وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾[2].

وتأتي اللواقح أيضاً بمعنى الملاقح، أي التي تُلقح غيرها، فالريح تلقح السحاب فيدر المطر، وتلقح الشجر فتنفتح عن أوراقها وأكمامها وثمارها[3].

وللرياح أيضاً دور في تلقيح عناصر النبات المؤنثة بعناصره المذكرة، فعندما تهب الرياح تحمل غبار الطَلْع المذكر إلى أزهار النبات المؤنثة، وهذا المعنى ـ وإن كان حقيقة علمية يحتمله لفظ كلمة (لواقح) ـ إلا أن الوحدة الموضوعية لمعاني كلمات الآية لا تحتمله، وهي قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿ فأنزلنا من السماء ماءً ﴾: أي من السحاب الذي في جهة السماء والذي حملته الرياح، ﴿ فأسقيناكُموه ﴾: أي جعلناه لكم سُقياً، تسقون به مزارعكم ومواشيكم.

ولفظ (أسقينا) أبلغ من (سقينا) لما فيها من الدلالة على جعل الماء مُعدّاً لهم ينتفعون به متى شاءوا[4].

---

(١) الأعراف: ٥٧.

(٢) الذاريات: ٤١.

(٣) أضواء البيان ١٣٤٢/٣، ومجموعة التفاسير ٥٥٦/٥.

(٤) روح المعاني ٣١/١٥.

خزائن الماء في السماء والأرض

وقوله سبحانه: ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ [٢٢] يدل على تفرده سبحانه بالقدرة الكاملة، إذ نفى عنهم ما أثبته لنفسه بما سبق من قوله عزّ وجلّ: ﴿ وإنْ من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾، فهو سبحانه الذي يرسل الرياح، ويثير السحاب، ويخزن الماء فيه، وينزله منه. أو وما أنتم له بخازنين في داخل طبقات الأرض وتحت ثراها.

وقد قالوا: إن من المياه الجوفية التي يستخرجها الناس من باطن الأرض في العصر الحاضر، قد خزنت فيها منذ ملايين السنين بقدرته سبحانه، الذي خلق في الأرض أسباب حفظ المـاء وبقائه فيها كل هذه الأزمان السحيقة، فهو سبحانه الخازن لهذه المياه على الحقيقة، ولو لم يخلق سبحانه لهذه المياه أسباب الحفظ لغارت في الأرض وضاعت، فإن طبيعة الماء تقتضي الغَوْر والانسياب، فوقوفه عند حده لا بد له من سبب مخصص[١] قال عزّ شأنه: ﴿ قل أرأيتم إن أصبحَ ماؤكم غوْراً، فمن يأتيكم بماء معين ﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً بقَدَر، فأسكناه في الأرض، وإنا على ذهابٍ به لَقادرون ﴾[٣]، فبقدرته سبحانه جعل للماء خزائن في جو السماء وباطن الأرض.

الوارث عزّ وجلّ

وبعد أن بيّن سبحانه تقديره للمخلوقات، وتخصيصه لكل منها بمقدار معين على مقتضى حكمته ومشيئته، بيَّن سبحانه أن الموت

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/٥٥٧.
(٢) الملك: الآية ٣٠.
(٣) المؤمنون: الآية ١٨.

والحياة بمشيئته أيضاً وقدرته، وأنه سبحانه الذي لا يموت، فهو القديم الذي لا بداية له، والباقي الذي لا نهاية له، فحضرته سبحانه حضرة إطلاق عن النواميس والحدود، قال عزّ وجلّ: ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ فهو سبحانه وحده الذي يحيي بالإيجاد، ويميت بالإفناء، ﴿ ونحن الوارثون ﴾ [٢٣] الباقون بعد موت المخلوقات وفنائها، كما قال جلّ وعز: ﴿ كلُّ مَنْ عليها فانٍ، ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلال والإكرام ﴾[١]، وقوله أيضاً: ﴿ كل شيء هالكٌ إلا وَجْهَه، له الحكمُ وإليه تُرجعون ﴾[٢].

ويقال للباقي وارث، استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فنائه[٣] فالله سبحانه هو الباقي بعد فناء خلقه، متصفاً بصفات الكمال والجلال.

المستقدمون والمستأخرون

ولا يُخرج الموت والفناء المخلوقات عن إحاطة علمه سبحانه وقدرته، فهو سبحانه محيط بها في شتى أحوالها وأطوارها، موجودة كانت أو معدومة، في الحياة وبعد الممات، قال عزّ شأنه: ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾ [٢٤]، أي من تقدم ولادة وموتاً ومن تأخر، أو من خلق الله تعالى ومن لم يخلقه بعد، أو المتقدمين في الطاعات والمقصرين فيها.

فالآية تبيِّن كمال علمه تعالى لما كان ويكون، فلا يخفى على الله شيء من أحوال خلقه، فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم في

(١) الرحمٰن: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) القصص: الآية ٨٨.
(٣) تفسير النسفي ٥/٥٥٨.

الحدوث والوجود، وتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات[1]. ولن يقيم الله الساعة حتى تكتمل عدة المخلوقات التي سبق علمه سبحانه بهم، وتعلقت إرادته بخلقهم ﴿ لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً ﴾[2].

وهو وحده سبحانه القادر على جمعهم وحشرهم بعد موتهم وتفتت أجسامهم: ﴿ وإن ربك هو يحشرهم ﴾ للحساب والجزاء، ﴿ إنه حكيم ﴾ في إيجاده للمخلوقات على الوجه اللائق بها، وفي تقديره الحشر للجزاء والحساب، ﴿ عليم ﴾ [٢٥] وسع علمه كل شيء وأحاط بكل شيء سبحانه.

---

(١) انظر التفسير الكبير ١٨٢/١٩.

(٢) مريم: الآية ٩٤.

الفصل الثالث

القصة الأولى

الإنسان والشيطان

التراب والنار

عَرْضُ القصص الواقعية والتاريخية على سبيل الاستشهاد والتأكيد لموضوع السورة وأفكارها من أساليب القرآن الكريم البارزة فيه، وها هي الآيات الكريمة في سورة الحِجْر تؤكد ما سبق تقريره فيها بذكر بعض القصص الواقعية والتاريخية، وتبدأ بقصة الإنسان والشيطان.

بينت الآيات في بداية القصة الاختلاف القائم بين تكوين البنية المادية للإنسان وبين تكوين بنية الشيطان، بقوله عزّ وجلّ: ﴿ ولقد خَلَقنا الإنسانَ من صَلْصال من حَمَإٍ مسنون ﴾ [٢٦].

والمراد من الإنسان في الآية آدم عليه السلام أول مخلوق من البشر، خلق الله تعالى بنيته المادية من تراب الأرض، وجاء التصريح عن ذلك بآيات كثيرة منها: ﴿ يا أيها الناسُ إنْ كنتم في رَيْب من البَعْث، فإنا خلقناكم من تُراب ﴾[١]، وبيَّن سبحانه أن ذلك التراب مُزج بالماء فصار طيناً يعلق بالأيدي، ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾[٢]، وأن هذا الطين تغيَّر واسودَّ حتى صار حمأً مسنوناً، ثم يبس

---

(١) الحج: الآية ٥.

(٢) الصافات: الآية ١١.

حتى صار له صلصلة كالفخار، كما في الآية هنا، وفي قوله أيضاً: ﴿ خلق الإنسان من صَلْصال كالفخار ﴾[1].

فالحاصل أن التراب لما بُلَّ صار طيناً، فلما أنتن صار حَمَأً مسنوناً، فلما يبس صار صلصالاً[2].

والجدير بالذكر أن علم التحليل الكيميائي أثبت أنك لو أخذت حفنة من تراب الأرض، وأجريت عليها التحليل الكيميائي لوجدتها تتكون من ستة عشر عنصراً، هي نفس العناصر التي يتكون منها جسم الإنسان، ووجدت أيضاً اتحاد النسبة المئوية بين العناصر في التراب وجسم الإنسان[3].

وأما الشيطان فقد خلقه الله تعالى من نار السموم، ﴿ والجانَّ خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ [٢٧]. والجان أبو الجن أو الشيطان، خلقه الله قبل خلق آدم من نار السموم، وهي الشديدة الحارة التي تقتل، فقال سبحانه: ﴿ وخَلَق الجانَّ من مارجٍ من نار ﴾[4].

وفي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصُف لكم»[5].

نَفْخ الروح

ثم شرعت الآيات تبين ما حدث بعد أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام: ﴿ وإذ قال ربُّك للملائكة إني خالقٌ بَشَراً من صَلْصال من حَمَإٍ

---

(١) الرحمٰن: الآية ١٤.

(٢) فتح القدير ٣/ ١٣٠.

(٣) انظر جريدة العالم الإسلامي العدد ١٠٦٤، تحت عنوان: الإعجاز العلمي للقرآن.

(٤) الرحمٰن: الآية ١٥.

(٥) صحيح مسلم.

مَسْنون ﴾ [٢٨] فقد بين الله تعالى للملائكة طبيعة البنية المادية للمخلوق الجديد، ثم قال لهم: ﴿ فإذا سَوَّيْتُه ﴾: أي أتممت خِلقته وعدَّلت صورته، وهيأته لنفخ الروح فيه، ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾، والنفخ: إجراء الريح في الشيء؛ والروح: جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، وحقيقة قوله: ﴿ من روحي ﴾ إضافة خَلْق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه سبحانه، أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: أرضي وسمائي، وبيتي، وناقة الله وشهر الله، ومثله ﴿ ورُوح منه ﴾[1] في الآية الكريمة:

﴿ يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحقَّ، إنما المسيحُ عيسى ابن مريمَ رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات والأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾[2].

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿ ونفختُ فيه من رُوحي ﴾: المراد منه تمثيل إفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها وليس هناك نفخ حقيقة[3].

والعلماء متفقون على أن قوله: ﴿ روحي ﴾ إضافة خلق إلى الخالق للتشريف والتكريم، كبيت الله، وناقة الله.

وأما حقيقة الروح فلا يعلمها إلا الله تعالى القائل: ﴿ ويسألونك عن الروح؟ قُلِ الروحُ من أمْرِ ربي، وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[4].

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/٢٤.
(٢) النساء: الآية ١٧١.
(٣) روح المعاني ٥/٢٦.
(٤) الإسراء: الآية ٨٥.

خطأ جسيم

وقد أخطأ سيد قطب رحمه الله خطأً جسيماً عندما استعمل ألفاظاً موهمة لمعنى فاسد، يصادم العقيدة الإسلامية القائمة على توحيد الخالق سبحانه، وهو معنى الحلول الذي شاع عند بعض المتصوفة القائلين بأن الكون كله بما فيه مجموعة إلهية، والله تعالى روح لها، وهذا كفر قطعاً كما قال الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى، إذ هو الحلول الذي يتبرأ منه المؤمنون[1].

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: (ولا نملك أن نسأل: كيف تلبست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني، فالجدل على هذا النحو عبث عقلي... إنه يقول: كيف يتلبس الخالد بالفاني؟ وكيف يتلبس الأزلي بالحادث؟ ثم ينكر أو يثبت أو يعلل، بينما العقل الإنساني ليس مدعواً أصلاً للفصل في الموضوع لأن الله يقول: إن هذا قد كان، ولا يقول: كيف كان، فالأمر إذن ثابت، ولا يملك العقل البشري أن ينفيه، وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده، من غير تسليم بالنص)[2].

لكن علماء التفسير فهموا الآية فهماً لا يثير مثل هذه التساؤلات الفاسدة التي أثارها: كيف يتلبس الخالد بالفاني، وكيف يتلبس الأزلي بالحادث؟ والتي أثبتها بعد ذلك بقوله حكاية عن الله تعالى: إن هذا قد كان... إن هذا لم يكن أبداً، وليس في الآية ما يدل على هذا التلبس، فإن قوله سبحانه ﴿ ونفختُ فيه من روحي ﴾ لا يدل على هذا المعنى قطعاً، وإلا لزم القول بأنه سبحانه حلّ وتلبس في البيت الحرام

---

(١) انظر: العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد للمؤلف.

(٢) ٤/ ٢١٤٠.

عندما قال: (وطهِّر بيتي للطائفين ﴾، وأنه سبحانه تلبس وحلَّ في الناقة عندما قال: ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهو القائل: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[1]، تقدست ذاته وتسامت صفاته، ﴿ وما قَدَرُوا الله حق قدره والأرض جميعاً قَبْضتُه يوم القيامة، والسموات مَطْوِيّاتٌ بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[2].

وقد قال سبحانه رداً على النصارى الذين زعموا أنه حلَّ في عيسى عليه السلام: ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريمَ، قُلْ فمن يملكُ من الله شيئاً إن أراد أن يهلكَ المسيحَ ابن مريم وأمَّه ومن في الأرض جميعاً، ولله مُلْكُ السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء، والله على كل شيء قدير ﴾[3].

فهو سبحانه واحد أحد مباين لخلقه بذاته وصفاته وأفعاله، ولا يكون الإنسان مؤمناً إلا بهذا الاعتقاد.

سجود الملائكة

ثم أمر سبحانه الملائكة بالسجود لآدم على وجه التحية والإكرام، ﴿ فقَعُوا له ساجدين ﴾ [٢٩]، وفي أمرهم بالوقوع، أي السقوط، دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء، كما قيل، بل السجود بالمعنى المتبادر[4]، وهو محرم في الإسلام على أي وجه، سواء كان للتحية أو للتعظيم أو للعبادة، قال رسول الله ﷺ: «لو كنت

---

(١) الشورى: الآية ١١.

(٢) الزمر: الآية ٦٧.

(٣) المائدة: الآية ١٧.

(٤) روح المعاني ١٥/٤٥.

آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها»[1].

وامتثل الملائكة لأمر الله تعالى، ﴿ فسجد الملائكةُ كلُّهم ﴾، فلم يشذ أحد منهم ﴿ أجمعون ﴾ [٣٠]، ولم يتأخر أحد عن أحد، بل أوقعوا الفعل مجتمعين في وقت واحد[2].

إباء إبليس

وأبى إبليس السجود تكبراً: ﴿ إلا إبليسَ أبَى أن يكون مع الساجدين ﴾ [٣١] بعد أن شمله الأمر الإلهي بالسجود مع الملائكة، كما جاء مصرحاً به في قوله: ﴿ ما مَنَعك ألاَّ تسجدَ إذ أمرتك ﴾[3].

ولما سأله سبحانه مقرِّعاً وموبخاً ﴿ قال: يا إبليسُ مالك ألا تكون مع الساجدين ﴾ [٣٢]؟ ردّ الخبيث لعنه الله بوقاحة وتبجح: ﴿ قال لم أكنْ لأسجدَ لبشر خلقتَه من صَلْصال من حَمإٍ مسنون﴾ [٣٣]!! رأى لنفسه علاً على آدم، لأن أصل إبليس من نار، بينما أصل آدم من طين، وقد ء التصريح به في موضع آخر في قوله: ﴿ قال أنا خيرٌ منه، خلقتَني ن نار وخلقتَه من طين ﴾[4].

وما درى الخبيث أن الفضل لا يكون بالأصل، وإنما يكون بعبادته سبحانه وطاعته وامتثال أمره، فاستحق الخبيث بسبب تكبره وتجبره طرده ولعنته ﴿ قال فاخرجْ فإنك رَجيم ﴾ [٣٤]. أي اخرج من زمرة الملائكة، أو من السماء، أو من الجنة، فإنك مطرود من كل خير وكرامة، ﴿ وإن عليك اللعنة ﴾ الباقية التي لا تزول ﴿ إلى يوم الدين ﴾ [٣٥]، وجعل يوم الدين غاية لها لأنه أبعد غاية يضربها الناس في

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) روح المعاني ٥/٤٥.
(٣) و(٤) الأعراف: الآية ١٢.

كلامهم، فالمراد دوامها من غير انقطاع، أو لأنه يوم الدين يعذب بما ينسى اللعن معه، أو يزداد يوم الدين عذاباً إلى اللعنة التي عليه[1].

عندئذ تسعرت نفس الخبيث حقداً على الإنسان وحسداً له، فسأل الله تعالى أن يؤخر أجله ويطيل عمره إلى يوم القيامة: ﴿ قال ربِّ فأَنْظِرْني إلى يوم يبعثون ﴾ [٣٦]، فاستجاب الله تعالى دعوته، وهو سبحانه يعلم أنه سيسعى لإضلال كثير من الناس وإغوائهم انتقاماً منهم، إذ اقتضت حكمته سبحانه أن تكون الدنيا دار ابتلاء واختبار، وأن يكون الشيطان فيها من أكبر أسباب الابتلاء والاختبار، ﴿ قال فإنك من المُنْظَرين ﴾ [٣٧] أي إنك من الذين أخَّرت آجالهم ﴿ إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ [٣٨]، وهو وقت النفخة الأولى التي يصعق بها كل من قدَّر سبحانه موتهم من أهل السماوات والأرض: ﴿ ونُفخ في الصور فصَعق مَنْ في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون ﴾[2].

نقاط الضعف البشري

﴿ قال رب بما أغويتني ﴾: أي بسبب ابتلائي بالسجود لآدم الذي جعلني أضل، ﴿ لأزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ﴾: أي أقسم لأزينن لهم في الأرض، وأراد من قوله: ﴿ في الأرض ﴾ ما فيها من شهوات كثيرة وآمال طويلة، تجعلهم ينصرفون عن عبادة الله تعالى وطاعته، ويغفلون عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، ﴿ ولأُغْوِيَنَّهُم أجمعين ﴾ [٣٩]، وهذا يدل على شدة ثقة الشيطان بنفسه وشدة مكره وخداعه.

---

(١) انظر مجموعة التفاسير ٣/٥٦٢.

(٢) الزمر: الآية ٦٨.

ويبدو أنه علم نقاط الضعف عند الإنسان بما شاهد من تكوين جسده، فالإنسان مخلوق من تراب الأرض، ولـه جَوْف يصوِّت ويصلصل كالفخار، وعمره في الأرض مقدَّر ومحدود، فله إذن ميل وتعلق بشهوات الأرض، وقد جاء في الحديث الشريف: «لما خلق الله عزّ وجلّ آدم تركه ما شاء الله أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر إليه، فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْق لا يتمالك»[1].

فلشهوات الإنسان الجسدية تأثير كبير عليه إذا أُثيرت وسُعِّرت، لهذا أخذ الخبيث على نفسه أن يزين للإنسان شهواته الجسدية الأرضية، ويثير في نفسه رغباته الجنسية، حتى يجعله ينهمك بها وينصرف عما كلفه الله تعالى به من العبادة والطاعة.

ويتمكن بهذا من إدخال الخلل على التوازن في حياة الإنسان في طاعته لربه والتزامه بشرعه ومنهجه.

لقد أحل الله تعالى للإنسان أن يلبي مطالب جسده الأرضية من حدود تقيم في حياته توازناً بين دنياه وآخرته، وبين جسده وروحه، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، كما سبق بيانه في أول الكتاب، فإذا ما انخدع بتزيينات الشيطان واستجاب لنزغاته، وقع الخلل في هذا التوازن، ودخل بالتالي في العناء والشقاء.

مطايا الشيطان

وأهم مطايا الشيطان ووسائله لتحقيق أغراضه، التسويف وتطويل الأمل، فالإنسان بطبعه يميل إلى الأرض ويحب البقاء فيها ويكره الفناء، وهي نقطة ضعف كبيرة في الإنسان، وعن طريقها تمكن

(١) رواه أحمد في المسند ٣/٣٥٢.

الخبيث من إغواء آدم وحواء عندما كانا في الجنة، وجعلهما يرتكبان المحظور، ويأكلان من الشجرة المحرمة عليهما، فقد أخبرهما بأنها شجرة الخلد، وأقسم كاذباً أنهما ينالان الخلود والملك الذي لا يبلى إن أكلا منها: ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُوري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكَين، أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾[1]، ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدمُ هل أدلُّك على شجرة الخُلْد ومُلْك لا يبلَى ﴾[2].

فالأماني الكاذبة والآمال الطويلة مطايا الشيطان لإغواء الإنسان، قال سبحانه: ﴿ يَعِدُهم ويُمنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطان إلا غروراً ﴾[3].

سبيل النجاة

﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [٤٠] الذين أخلصتهم لك واصطفيتهم لطاعتك، أو المخلصين في طاعتهم لك، ولا يلتفتون لأحد سواك، وفيه مدح للإخلاص، فهو سبيل النجاة من كيد الشيطان ومكره.

ثم بيّن سبحانه أنه ليس للشيطان تسلط على أحد من عبيده بحيث يتمكن من قهره وإجباره على المعصية، يستوي في هذا المخلصون وغيرهم، فقال عزّ شأنه: ﴿ قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ ﴾ [٤١] أي حق عليَّ أن أراعيه بلا انحراف فيه ولا عدول عنه إلى غيره، وهو فضل منه سبحانه التزم به لعباده، ﴿ إنّ عبادي ليس لك عليهم

---

(١) الأعراف: الآيتان ٢٠ ـ ٢١.

(٢) طه: الآية ١٢٠.

(٣) النساء: الآية ١٢٠.

سلطان ﴾: أي ليس لك تسلُّط وإجبار على أحد من عبيدي المخلصين وغيرهم، فلا يستطيع إبليس سوى تحسين المعصية وتزيين الفاحشة، ولهذا يتبرأ من أتباعه يوم القيامة عندما يتجهون إليه باللوم والتقريع: ﴿ وقال الشيطانُ لمَّا قُضي الأمر: إنَّ الله وعدَكم وَعْدَ الحق ووعدتكم فأخلَفْتُكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [٤٢] استثناء مما تقدم، ولكنه بسبب انقيادهم للشيطان ومتابعتهم له[2]، فسلطانه عليهم بسبب انخداعهم بكيده ومكره، ولهذا وصفهم الله تعالى بصفة (الغاوين) فالغواية والضلالة نابعة من أنفسهم.

أبواب جهنم

وجاءت الآيات تتوعد أولئك الغاوين الموالين للشيطان المتبعين له، حتى يرتدعوا عما هم فيه وينزجروا، ﴿ وإنَّ جهنمَ لموعدُهم أجمعين ﴾ [٤٣] وفي جعل جهنم موعداً لهم تهكم مرير بهم، فكأنهم على ميعاد مع جهنم[3].

﴿ لها سبعة أبواب ﴾ أي لجهنم سبعة أبواب، أو سبع طبقات، ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ [٤٤] معيّن له ومفرز، والسبب فيه اختلافهم في مراتب الكفر والفجور.

ثم بيَّنت الآيات مصير المخلصين الذين لم يتمكن الشيطان من إغوائهم اتباعاً للأسلوب القرآني في الجمع بين الترهيب والترغيب:

---

(١) إبراهيم: الآية ٢٢.

(٢) انظر التفسير الكبير ١٩/١٩٤.

(٣) روح المعاني ١٥/٥٢.

﴿ إن المتقين في جناتٍ وعيون ﴾ [٤٥] هكذا على الإطلاق دون قيود وحدود، ويقال لهم ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أي ادخلوا الجنة التي هي دار السلام بسلام، ﴿ آمنين ﴾ [٤٦] من طروء المكدرات والمنغصات، ومن الحقد والحسد، فقد وصلتم دار السلام والأمان، فلا يدخلون الجنة حتى يطهر الله تعالى قلوبهم ونفوسهم من جميع الآفات، وكذلك يكمِّل ويجمِّل أجسامهم ﴿ ونَزَعْنا ما في صدورهم من غِلٍ ﴾ من حقد، حتى أصبحوا ﴿ إخواناً ﴾ يجلسون مع بعضهم ﴿ على سُررٍ متقابلين ﴾ [٤٧]، ﴿ لا يمسهم فيها نَصَبٌ ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة تعب وعناء، ﴿ وما هم منها بمُخْرَجين ﴾ [٤٨] أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بفضله وكرمه.

النشوء والارتقاء

لا بدَّ لنا هنا أن نشير إلى خطأ ما يسمى بنظرية النشوء والارتقاء، أو نظرية دارون، نسبة إلى اليهودي الإنكليزي دارون ١٨٠٩ ـ ١٨٨٢ م، لأنها تصادم الآيات القرآنية الكريمة التي سبقت في هذه السورة، وفي غيرها من السور القرآنية، والتي بيَّن الله تعالى فيها كيف بدأ خلق الإنسان، وذلك بسبب انتشار هذه النظرية بين كثير من أبناء المسلمين، فهي تدرس في كثير من مدارسهم وجامعاتهم، وتتحدث عنها بشكل مستمر وسائل الإعلام بواسطة الأفلام التلفزيونية التي يسمونها بالعلمية، مع أن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية تكذبها، وكذلك العلم الحديث قد نقضها ولم يعد يأبه بها[1].

وتقول هذه النظرية: إن الأحياء تتخلَّق من بعضها بسبب تأثير

---

(١) انظر القرار المكين.

البيئة والزمن، وإن هناك اختياراً طبيعياً في الأحياء، بحيث لا يبقى إلا الأقوى، وصفاته هي التي تورث عنه.

وقد صنف أصحاب هذه النظرية المخلوقات الحية، فوجدوا أن أعلاها البشر، يليه القرد، وأن أدناها وحيد الخلية، فقالوا تبعاً لهذا: إن الخلق ابتدأ بوحيد الخلية، ثم تطور وارتقى حتى وصل إلى الإنسان[1].

وتصنيفهم للمخلوقات يدل على وحدة الخالق سبحانه، وهو أمر سبق أن لاحظه علماء المسلمين منذ زمن بعيد ونبَّهوا عليه، كابن خلدون في مقدمته، والدميري، والبلخي، والفخر الرازي[2].

وأما قولهم بأن الأحياء تتخلق من بعضها بسبب تأثير البيئة والزمن، فلا دليل لهم عليه، فلو أن مهندساً أنشأ ألف بناية تتميز كل واحدة عن التي قبلها ببعض التفاصيل، ولكنها تشترك كلها بطريقته في التصميم والإنشاء، فهل نقول: إن كل بناية قد اشتقت من التي قبلها وتطورت عنها؟!! أم نقول: إن الذي صمم وأنشأ الأولى هو نفسه الذي صمم وأنشأ الثانية وطورها حسب الظروف التي حدثت[3].

ثم إن علم الوراثة الحديث قد هدم كل أساس لهذه النظرية، فقد أصبح من الثابت أن الأصول تورث الفروع المتفرعة عنها كل ما تحمل من حصائص بواسطة الكروموزومات، ولا نجد بين أجناس المخلوقات اتفاقاً في الخصائص الموروثة، بل نجد بينها تبايناً ظاهراً واختلافاً حتى في عدد الكروموزومات، فعددها مثلاً في الإنسان ٤٦، وفي القرد ٤٨، وفي الغنم ٥٤، وفي الحصان ٦٦، وفي الكلب ٧٨[4]. ولهذا فقد

---

(١) القرار المكين.

(٢) انظر كتاب: خلق الإنسان بين الطب والقرآن.

(٣) و(٤) انظر القرار المكين.

أعلن القرار العلمي على بطلان النظرية الداروينية، بل إن دارون نفسه في كتابه أصل الأنواع أقر بوجود ثغرات كثيرة ومشكلات كبيرة معقدة في نظريته، منها أنه عثر على هياكل حيوانات تعود إلى ما قبل العصر الجليدي تشبه هياكل لحيوانات مماثلة لا تزال موجودة[1].

وقد عثروا في السنوات الأخيرة في البحار القريبة من جزر القمر على سمكة كانوا يعتقدون انقراضها منذ عدة ملايين من السنين.

كل ذلك يؤكد بطلان هذه النظرية التي سبق وأكدت الآيات الكريمة بطلانها وفسادها.

(١) انظر كتاب نقض أوهام المادية الجدلية (الديالكتيكية).

الفصل الرابع

القصة الثانية

الأمل بالله تعالى

الرجاء والخوف

تناولت القصة الثانية موضوع الأمل عند الإنسان من جانب آخر، وهو أمل الإنسان بالله تعالى ورحمته.

وفي هذا الجانب ينبغي أن يكون أمل الإنسان بربه كبيراً ورجاؤه به عظيماً، فلا قنوط من رحمة الله تعالى، ولا يأس في جميع الأحوال والظروف، بل الواجب على الإنسان المؤمن أن يكون على ثقة كبيرة بالله تعالى، وأن يكون أمله برحمته سبحانه قوياً، فلا يجتمع الإيمان بالله تعالى مع اليأس والقنوط من رحمته، قال سبحانه: ﴿ إنَّه لا ييأسُ من رَوْح الله إلا القومُ الكافرون ﴾[1].

ويجب على الإنسان المؤمن في نفس الوقت ألا يغفل عن مسؤوليته عن أعماله أمام الله تعالى يوم القيامة، وما يترتب عليها من حساب وعقاب، فالإنسان مهما اجتهد في طاعة الله يجد نفسه مقصراً، ومهما تحرَّز عن المعاصي والذنوب لا بدَّ أن يدركه ضعف الإنسان فيقارف بعضها، ولهذا ينبغي أن يكون دائماً على خوف ووجل من الله تعالى.

وبهذا يجمع الإنسان المؤمن بين الرجاء والخوف في قلبه، يرجو

(١) يوسف: الآية ٨٧.

رحمة الله ويخشى عذابه، ويبقى بهذا الجمع متوازناً في حياته ومستقيماً في سلوكه، فلا يستطيع الشيطان أن يستغل قوة رجائه وطول أمله برحمة ربه، فيوقعه بشراك غروره وخداعه، فالخوف من الله وخشيته تقطع على الشيطان الطريق.

أما إذا أمن من عذاب الله وغلب عليه الرجاء برحمته ومغفرته عندئذ يقع الخلل في حياته ويتمكن الشيطان من المكر به وخداعه، الأمر الذي حذَّر منه سبحانه في آيات كثيرة، منها قوله: ﴿يا أيها الناسُ إنَّ وعدَ الله حقٌّ فلا تَغُرَّنكم الحياةُ الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرورُ. إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتخذوه عدواً، إنما يدعو حزبَه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[1].

وما أكثر الذين تمكن الشيطان من التغرير بهم من جانب الرجاء والأمل، إذ جعلهم يطمعون بفضل الله ورحمته، ويغفلون عن عقابه وعذابه، فانغمسوا في المعاصي وأخروا التوبة حتى نزل بهم الموت وفاجأهم الأجل المجهول، عندئذ يدركون خسارتهم وتفريطهم فيسألون الله تعالى أن يؤخر آجالهم ويطيل في أعمارهم، كما قال سبحانه فيهم: ﴿ حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال ربِّ ارْجِعون. لعلي أعملُ صالحاً فيما تركتُ، كلَّا إنها كلمةٌ هو قائلُها، ومن ورائهم بَرْزَخٌ إلى يوم يبعثون ﴾[2]. إنها وِدادة وأمنية لا تتحقق لأن آجالهم لا تتقدم ولا تتأخر كما سبق بيانه في السورة.

المغفرة والعذاب

وتأكيداً لهذه المعاني بدأ الله تعالى القصة الثانية في سورة الحِجْر بقوله الكريم: ﴿ نبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ [٤٩] ﴿ وأنَّ عذابي هو العذابُ الأليم ﴾ [٥٠].

(١) فاطر: الآيتان ٥ ـ ٦.

(٢) المؤمنون: الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠.

وقوله سبحانه ﴿ عبادي ﴾ تشريف كبير للمؤمنين المقِّين بالعبودية لله تعالى، ومغفرته سبحانه لا تكون إلا لمن تاب وأناب وأقلع عن المعاصي والآثام، إذ هو القائل سبحانه: ﴿ وإني لغفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[1].

ومهما كانت ذنوب الإنسان التائب كبيرة، فإن الله تعالى يغفرها ويسترها برحمته وفضله، إذا صدق صاحبها في توبته، وأخلص لله تعالى في إنابته ﴿ قُلْ يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنَّ الله يغفر الذنوبَ جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبلِ أن يأتيكم العذابُ ثم لا تُنصرون ﴾[2].

وبشرط أن يبادرَ إلى التوبة دون تسويف لها وتأخير، لأنه لا يدري متى ينزل به أجله المقدَّر لموته، قال سبحانه: ﴿ إنما التوبةُ على الله للذين يعملون السوءَ بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليماً حكيماً ﴾[3] أي يتوبون بعد زمن قريب من فعل المعصية دون تسويف ولا تأخير، وإلا لم تقبل توبتهم، وانسحب عليهم قوله تعالى: ﴿ وليست التوبةُ للذين يعملون السيئات، حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تبتُ الآن، ولا الذين يموتون وهم كفار، أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾[4].

فعلى هؤلاء المسوِّفين الذين غرهم طول الأمل في الحياة الدنيا أن يعلموا أن عذابَ الله أليمٌ ﴿ وأنَّ عذابي هو العذاب الأليم ﴾.

ولا يخفى ما في أسلوب العرض في الآيتين الكريمتين من تغليب

---

(١) طه: الآية ٤٢.

(٢) الزمر: الآيتان ٥٣ ـ ٥٤.

(٣) و(٤) النساء: الآيتان ١٧ ـ ١٨.

لجانب الرجاء والأمل برحمة الله تعالى ومغفرته، فتقديمه بالذكر مع تأكيده وتوصيف ذاته سبحانه به دون التعذيب، يرجح جانب الرجاء، كما يرجحه أيضاً أمره سبحانه رسوله ﷺ أن يبلغ عباده هذا المعنى: ﴿ نَبِّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾، فكأنه سبحانه أشهد رسوله ﷺ على نفسه في التزام المغفرة والرحمة[1].

وينبه العلماء إلى أن على الإنسان أن يغلب في نفسه جانب الخوف والخشية في حال السَعَة واليسر كي لا تغلبه شهواته، وأنَّ عليه أن يغلب جانب الرجاء والأمل في حال المرض والخطر كي يكون على ثقة بالله تعالى ورحمته.

ضيف إبراهيم

ويتفق تغليب جانب الأمل والرجاء مع سياق الآيات الكريمة في السورة، التي شرعت في عرض قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إليه يحملون له البشارة بغلام عليم:

﴿ ونبِّئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ [٥١] وهم الملائكة الذين جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام بالبشارة، وكلمة ـ الضيف ـ تدل على المفرد والجمع لأنها مصدر.

﴿ إذ دخلوا عليه ﴾ وهم متشكلون بهيئة البشر، ﴿ فقالوا سلاماً، قال إنا منكم وَجِلُون ﴾ [٥٢] أي فزعون خائفون، ولا تظنن أن إبراهيم عليه السلام واجههم بهذا عندما دخلوا عليه، فقد كان عليه السلام كريماً، ويحب أن يغشاه الضيوف دائماً في بيته، وإنما قال ذلك في نفسه بعد أن قدم لهم الطعام، ولم تمتد أيديهم إليه، لأن أجسام

---

(١) تفسير الخازن ٥/٥٦٦.

الملائكة نورانية، فهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يحتاجون إلى ما يحتاج إليه الإنسان المخلوق من تراب الأرض، والذي يتغذى بما تخرجه له الأرض.

فقد أجملت الآيات هنا ما فصَّلته في سورة أخرى بقوله تعالى: ﴿ ولقد جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى، قالوا سلاماً قال سلام، فما لبث أن جاء بِعجْل حنيذٍ. فلما رأى أيديَهم لا تصلُ إليه نَكِرَهم وأوجسَ منهم خِيفة، قالوا لا تَخفْ إنا أُرسلنا إلى قوم لوط. وامرأتُه قائمةٌ فضحكت، فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾[1].

البشـــرى

﴿ قالوا لا تَوْجل ﴾: أي لا تخف، ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾ [٥٣] أي كثير العلم، وهو إسحٰق، إذ جاء التصريح به في الآيات السابقة الذكر من سورة هود، فقد صرحت باسمه واسم ولده يعقوب عليهما السلام، وأما الغلام الذي بُشر به إبراهيم والموصوف بالحلم في قوله تعالى: ﴿ وقال إني ذاهبٌ إلى ربي سيهدين. ربِّ هب لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم ﴾[2] فهو إسماعيل عليه السلام. فالبشارة تكررت لإبراهيم عليه السلام، ولهذا حكى الله تعالى عن إبراهيم قوله: ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيلَ وإسحاق إني ربي لسميعُ الدعاء ﴾[3].

ثم تابعت الآيات تقص الحوار بين الملائكة وإبراهيم عليه السلام: ﴿ قال أبَشَّرْتموني على أن مَسَّني الكبرُ، فبم تبشرون؟ ﴾ [٥٤]

---

(١) هود: الآيتان ٦٩ ـ ٧١.

(٢) الصافات: الآيتان ٩٩ ـ ١٠١.

(٣) إبراهيم: الآية ٣٩.

وسؤاله عليه السلام على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى على الخلق والإيجاد بدون مصاحبة الأسباب، فقد تقدم عليه السلام هو وزوجته في السن وكبرا وشاخا، فضلاً عن أن زوجته كانت عقيماً لا تلد. ولم يكن سؤاله على سبيل الاستبعاد كما زعم بعض المتأخرين من الكتاب[1].

وقد جاء التصريح بالتعجب في قوله تعالى: ﴿ قالت يا ويلتىٰ ءَأَلد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً، إن هذا لشيء عجيب!!. قالوا أتعجبينَ من أمر الله؟! رحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهلَ البيت، إنه حميدٌ مجيدٌ ﴾[2].

ورد الملائكة على إبراهيم مؤكدين البشارة: ﴿ قالوا بشَّرْناك بالحق، فلا تكن من القانطين ﴾ [٥٥]: أي لا تكن من الآيسين من خَرْق الله تعالى العادة لك، فهذا يدل على أن مقصده عليه السلام استعظام نعمته عليه في ضمن التعجب العادي المبني على سنة الله تعالى بين عباده، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته جلّ جلاله، فإنه عليه السلام أجلُّ قدراً من ذلك[3].

وبادر عليه السلام إلى نفي القنوط عنه ﴿ قال ومن يَقْنَط من رحمة ربه إلا الضالُّون ﴾ [٥٦] أي الكفار الذي لا يعرفون سَعَة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته، فاستفهامه للإنكار لنفي القنوط عن نفسه بأبلغ وجه[4].

وهكذا بينت لنا الآيات الكريمة من خلال هذه المحاورة أنه

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/٢١٤٨.

(٢) هود: الآيتان ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) انظر روح المعاني ١٥/٦٢.

(٤) المرجع نفسه.

يجب أن يكون أمل الإنسان بالله تعالى كبيراً، مهما كانت الظروف المحيطة به، فقدرته سبحانه طليقة لا تحدها حدود، ولا تقف أمامها موانع وعادات ونواميس، فالذي قدَّر النواميس قادر على خرقها.

مهمة المرسلين

ولما اطمأن إبراهيم عليه السلام إلى ضيوفه، وذهب عنه الخوف والحذر منهم، وعرف حقيقتهم، أقبل يسألهم عن المهمة التي أُرسلوا من أجلها، ﴿ قال فما خَطْبُكم أيها المرسلون ﴾ [٥٧] أي ما أمركم وشأنكم الخطير الذي أُرسلتم لأجله، فكأنه عليه السلام أدرك أن مجيئهم ليس للبشارة فقط، ﴿ قالوا إنا أُرسلنا إلى قوم مُجرمين ﴾ [٥٨] وهم قوم لوط الذين كانوا يقيمون في بلاد سدوم وعمورة، حيث البحر الميت الآن في فلسطين، واستثنوا منهم ﴿ إلا آل لوط إنا لَمُنجُّوهم أجمعين ﴾ [٥٩]، وهم البيت المسلم الوحيد الذي كان في قوم لوط، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾[1].

وشذَّت امرأة لوط عن هذا البيت المسلم، فقد كانت موافقة لقومها على كفرهم، فشملها العذاب والهلاك الذي أنزله الله تعالى بهم، ولم ينفعها رباط الزوجية الذي يربطها بنبي الله لوط عليه السلام، بسبب كفرها، فاستثنيت من آل لوط الناجين بقوله تعالى: ﴿ إلا امرأتَه قدَّرنا إنها لمن الغابرين ﴾ [٦٠] أي حكمنا وقضينا إنها مع الباقين من الكفرة لتهلك معهم.

وبهذا كشف الملائكة عليهم السلام حقيقة المهمة التي أرسلوا من أجلها لإبراهيم عليه السلام.

(١) الذاريات: الآيتان ٣٥ ـ ٣٦.

استباق الحوادث

ثم انتقلت الآيات لتصف ما حدث للرسل مع لوط عليه السلام وقومه، والملاحظ أن الآيات هنا في سورة الحجر لم تراعِ الترتيب الوقوعي لأحداث القصة، كما فعلت عندما عرضت القصة في مواضع أخرى من القرآن الكريم، مثل سورة هود، فقد استبقت هنا الحوادث، وقدَّمت ذكر بشارة الملائكة للوط عليه السلام بهلاك قومه ونجاته هو وأهل بيته المؤمنين مما سينزل بهم، قدمت البشارة قبل الحديث عن معاناة لوط عليه السلام من قومه عندما أتَوا مسرعين إلى بيته ليعتدوا على ضيوفه ويفعلوا الفاحشة بهم، ومدافعته عليه السلام لهم وما لقي في ذلك منهم.

ولعل الحكمة في استباق الآيات للأحداث والمبادرة إلى ذكر البشارة قبل وصف المحنة والشدة، تقوية أمل المبتلى بالمحنة بالله تعالى، وتعزيز ثقته به سبحانه، فكأن الآيات تقول للإنسان المبتلَى بالشدة والضيق: أيها الإنسان الممتحن كن على ثقة كبيرة برحمة الله وفضله، إياك أن تيأس مهما اشتدت عليك المحن، واجتمعت عليك المصائب والنقم، فرحمته سبحانه قريبة وفرجه غير بعيد، وبهذا يظهر لنا مدى الارتباط والاتساق بين الآيات وموضوع السورة.

في بيت لوط

﴿ ولما جاء آل لوط المرسلون ﴾ [٦١] أي لما كان الملائكة المرسلون في بيت لوط عليه السلام، وليس المراد ابتداء مجيئهم، فالآيات لم تراع الترتيب الوقوعي لحوادث القصة، كما قلت قبل قليل.

﴿ قال إنكم قوم منكرون ﴾ [٦٢]، ولم يقل عليه السلام هذا للملائكة عندما جاءوا إليه، وإنما قال لهم ذلك بعد أن جاء قومه إلى

بيته مسرعين، ووقف عليه السلام دون ضيوفه يمنع عنهم أذى قومه وفحشهم وشذوذهم، وعانى في هذا عناءً شديداً، حتى اضطر إلى القول: ﴿ لو أنَّ لي بكم قوةً أو آوي إلى رُكْن شديد ﴾[1] والملائكة جالسون في هيئة البشر لا يتكلمون، ولا يساعدونه في دفع قومه وردِّهم، عندئذ التفت إليهم منكراً موقف الخذلان وترك النصرة قائلاً لهم: ﴿ إنكم قوم مُنْكَرون ﴾.

فردَّ الملائكة عليه كاشفين له حقيقتهم، ومبيِّنين له جلية الأمر: ﴿ قالوا بَلْ جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ [٦٣]؛ فأتَوا بكلمة (بل) التي تدل على الإضراب عما حسبه من ترك النصرة له[2] أي ما تركنا نصرتك بل جئنا لنصرتك بالعذاب الذي كنت تتوعد قومك به، وكانوا يشكون فيه ويكذبونك من أجله، ثم أكَّدوا كلامهم قائلين: ﴿ وأتيناك بالحق وإنا لَصادقون ﴾ [٦٤]، وتأكيداً لصدقهم بادروا إلى نصرته، فطمسوا أعين قومه، وأخذوا على أبصارهم، فانصرف قوم لوط وهم لا يبصرون شيئاً، يتلمسون طريقهم بأيديهم وهم يقولون: إن لوطاً يؤوي في بيته أسحر أهل الأرض. قال تعالى: ﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونُذُر. ولقد صبَّحهم بُكْرة عذابٌ مستقر ﴾[3].

الصبح القريب

ثم أمر الملائكةُ لوطاً عليه السلام بترك هذا البلد الظالم أهلُه والهجرة عنه مع المؤمنين من أهل بيته، لينجوا من العذاب الذي سينزل به.

---

(١) هود: الآية ٨٠.

(٢) انظر روح المعاني ١٥/٦٧.

(٣) القمر: الآيات ٣٦ - ٣٨.

﴿ فأسْرِ بأهلك بقِطْع من الليل ﴾: أي اخرج منها مع أهلك المؤمنين بعد مضي جزء من الليل، ﴿ واتَّبِعْ أدبارهم ﴾ ووصَّوْا لوطاً بأن يكون في مؤخرة أهله ليحميهم ويطَّلع على أحوالهم.

وهكذا ينبغي أن يكون حال أمير القوم أو الجماعة في حال الانسحاب من مكان الخطر، يسير في آخرهم، ويقدم نجاتهم على نجاة نفسه، ويحمي ضعيفهم، ويحمل المنقطع منهم.

﴿ ولا يلتفت منكم أحدٌ ﴾ حتى لا يرى ما وراءه من عذاب لا يطيقه، أو لا يلتفت متحسراً على مفارقه مثل هذا الوطن، ﴿ وامضوا حيث تُؤمرون ﴾ [٦٥]: أي إلى حيث يأمركم الله تعالى بالمضيّ إليه.

وهذا دليل على رحمته سبحانه ولطفه بعباده المؤمنين، نجاهم من الهلاك، وأرشدهم إلى مكان الأمن والسلامة.

ويبدو أن لوطاً عليه السلام كان يستعجل نزول العذاب بقومه لكثرة ما رأى من جرائمهم وكفرهم ومنكرات أخلاقهم، فأخبره تعالى أنه قدَّر أن يكون هلاكهم عند شروق الشمس في الصباح، ﴿ وقَضَيْنا إليه ذلك الأمر أنَّ دابر هؤلاء مَقْطوع مُصْبحين ﴾ [٦٦] فلا يتغير الأجل الذي قدره سبحانه وقضاه، ﴿ إنَّ موعدَهم الصبح أليسَ الصبحُ بقريب ﴾[1].

التصـــدي

وبعد أن استَبَقَتْ الآيات الحوادث، وبادرت إلى كشف حقيقة ضيف لوط والمهمة التي جاءوا من أجلها، عادت إلى الوراء لتبين شذوذ قوم لوط، وما فعلوا حين سمعوا بقدوم ضيف لوط عليهم

(١) هود: الآية ٨١.

السلام، ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ [٦٧] فرحين بضيوف لوط، لا لإكرامهم والقيام بحق ضيافتهم، بل ليفعلوا الفاحشة بهم، فما كان من لوط عليه السلام إلا أن تصدَّى لهم، يدافع عن ضيوفه حتى لا يُفتضح بهم، ويبذل كل ما يستطيع ليكف شر قومه عنهم: ﴿ قال إنَّ هؤلاء ضيفي ﴾،وحق على الرجل أن يكرم ضيفه، ﴿ فلا تفضحون ﴾ [٦٨] فيهم، فإن من أُسيء إلى ضيفه فقد أُسيء إليه، ﴿ واتقوا الله ﴾ في أمرهم، ﴿ ولا تخزون ﴾ [٦٩] ولا تعرِّضوني للخزي والهوان بالاعتداء عليهم.

لكن شهوة الشذوذ تسعَّرت في نفوسهم، واستبدت بقلوبهم، وغلبت على كل رواسب المروءة والحياء فيها، فردوا عليه مؤنبين ومهدِّدين لأنه استضاف هؤلاء الغرباء، ويذكرونه بما سبق أن نهوه عنه: ﴿ قالوا أوَ لَم نَنْهك عن العالمين ﴾ [٧٠] أي أو لم ننهك أن تضيف أحداً من العالمين، وتحول بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل من يمر ببلادهم، وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنه بقدر طاقته.

ثم ذكرهم بالطريق الفطري الذي أحلّه الله تعالى لقضاء هذه الشهوة المتقدة في نفوسهم: ﴿ قال هؤلاء بناتي إنْ كنتم فاعلين ﴾ [٧١] يعني نساءكم وأزواجكم، فإن للنبي مقام الأبوة في قومه، ويؤكده ما حكاه الله عنه في قوله: ﴿ أتأتون الذُّكْران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾[1].

ولكن الشذوذ والانحراف عن الفطرة السليمة سيطر عليهم واستبد بهم، فغلب على عقولهم، وجمَّد أحاسيسهم ومشاعرهم، ولهذا أقسم الله تعالى بعُمُر النبي ﷺ ليؤكد شدة تأثير الشذوذ عليهم،

---

(١) الشعراء: الآيتان ١٦٥ - ١٦٦.

فقال عزّ وجلّ: ﴿ لَعَمْرك ﴾ أي بعمرك قَسَمي ﴿ إنهم لفي سكرَتهم يَعْمَهون ﴾ [٧٢].

مقام رفيع

قال القاضي أبو بكر بن العربي: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ههنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له، وهكذا قال القاضي عياض: أجمع أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، وأصله ضم العين، من العُمر، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمد ـ ﷺ ـ وقيل: وحياتك، وهذا نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف[١].

وقال ابن كثير: أقسم الله تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض، قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره[٢].

وليس قسم الله تعالى بحياة النبي ﷺ معترضاً في قصة لوط كما رأى القرطبي في تفسيره[٣] إذ الخطاب موجه منذ بداية القصة للنبي ﷺ، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفورُ الرحيمُ، وأنَّ عذابي هو العذاب الأليم. ونَبِّئهم عن ضيف إبراهيم... ﴾ فهو إذن متفق تماماً مع سباق الآيات، ومتفق أيضاً مع سياقها، فستعود الآيات بعد قليل تخاطب النبي ﷺ كما سيأتي معنا.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/٣٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣١٥.

(٣) تفسير القرطبي ١٠/٤٠.

وهذا أيضاً يبين خطأ سيد قطب رحمه الله عندما قال: بينما المشهد البشع معروض على هذا النحو المثير، يلتفت السياق خطاباً لمن يشهد ذلك الخطاب على طريقة العرب في كلامهم بالقسم ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾[1].

فالخطاب للنبي ﷺ، وليس لمن يشهد ذلك المشهد باتفاق المفسرين. وجاء متفقاً مع سباق الآيات من أول القصة ومع سياقها في نهايتها.

سكرة لا ثورة

وقوله تعالى: ﴿ إنهم لفي سَكْرتهم ﴾ أي ضلالتهم أو غوايتهم، وما أجمل قول البيضاوي رحمه الله: غوايتهم أو شدة غلمتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم[2].

﴿ يعمهون ﴾ يتحيرون أو يترددون أو يلعبون.

وهذا يبين لنا شدة تأثير الشذوذ الجنسي على من ابتلي به، إذ يفقد معه تفكيره وتمييزه وتوازنه، ويجعله منطمس البصر والبصيرة، فلا يرى ولا يبصر إلا ما يطفىء غلمته، وينقع غلته، ويسكن شهوته.

وهذا يفسر لنا ما ينشر في الصحف عن فضائح لرجال كبار من ذوي المناصب العالية والوجاهة في مجتمعاتهم، ضبطوا وهم يمارسون هذا الشذوذ.

لقد انتشر الشذوذ الجنسي في المجتمعات الغربية وغيرها انتشاراً كبيراً، نتيجة الانحلال الخلقي، وانعدام القيم الدينية الصحيحة،

(١) انظر في ظلال القرآن ٤/ ٢١٥٠.

(٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٥٧١.

ونتيجة تشجيع وسائل الإعلام لما يسمونه بثورة الجنس، وهي - والله - سكرة وليست ثورة، سكرة أعمت بصائرهم وأبصارهم عن رؤية العواقب الوخيمة التي تتهددهم وتقرع أبوابهم. وما الأمراض الجنسية الخطيرة المنتشرة في هذه المجتمعات، وعلى رأسها مرض فقد المناعة الذي يسمونه (الإيدز) إلا بداية لهذه العواقب الوخيمة لسكرة الجنس المسيطرة عليهم، وصدق الله العظيم: ﴿ لَعَمْرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾.

فأي خير يُرجى من مجتمع تسود فيه سكرة الجنس؟ مثل هذا المجتمع الذي استشرى به الفساد واستفحل فيه الداء لا يمكن إصلاحه، فقد أصبح مغلوباً على أمره، لا يقبل أي علاج أو إصلاح، فلا بد إذن من استئصاله وبتره، كي لا يسري فساده وشذوذه إلى غيره من المجتمعات.

الاستئصال

أهلك الله تعالى الأمم المكذبة للأنبياء والمرسلين، كل أمة بنوع واحد من أنواع العذاب، أما قوم لوط فقد أهلكهم الله تعالى بثلاثة أنواع من العذاب، يكفي كل واحد لإهلاكهم واستئصالهم: ﴿ فأخَذَتْهم الصيحةُ مُشْرقين ﴾ [٧٣] وهو صوت شديد قاصف جاءهم عند شروق الشمس، ﴿ فجعلنا عالِيَها سافِلَها ﴾: أي قلب الله تعالى بلادهم، وذلك برفعها إلى عنان السماء ثم قلبها، لا كما زعم بعضهم بحدوث بركان أو زلزال، ورفعها وقلبها ثم الهوي بها، جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿ والمؤتفكة أهْوَى. فَغَشَّاها ما غشَّىٰ ﴾[1] والهوي لا يكون إلا من ارتفاع وعلو.

---

(١) النجم: الآيتان ٥٤ ـ ٥٥.

﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سِجِّيل ﴾ [٧٤] وهو النوع الثالث من أنواع العذاب الذي أنزله الله تعالى بهم، ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليَها سافلَها، وأمطرنا عليها حجارة من سِجيل منضود. مُسَوَّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾[١] فالمطر كان من حجارة ولم يكن مطراً معهوداً كما زعم بعضهم[٢].

والحجارة من طين مستحجر، وكل حجر معلمة بعلامة خاصة بصاحبها الذي أُعدت له، فأهلكهم الله جميعاً حاضرهم وغائبهم، إذ تتبعتهم الحجارة فضربتهم وأهلكتهم وطهرت الأرض من فسقهم ورجسهم.

الحصن الحصين

ثم عقّب سبحانه على ما أنزل بقوم لوط من أنواع العذاب بقوله: ﴿ إن في ذلك لآياتٍ ﴾ لعلامات ودلالات على قدرته سبحانه، وعلى انتقامه سبحانه من الذين يكذبون رسله، ويخرجون على منهجه الذي رسمه لهم، وفطرته التي فطرهم عليها. ﴿ للمُتَوسِّمِين ﴾ [٧٥] للمتأملين بعين بصيرتهم وبصرهم آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد، فآثارهم في بحيرة لوط أو البحر الميت، لا تزال باقية وماثلة للعيان في هذه المنطقة التي أصبحت نتيجة ما حدث فيها أخفَض منطقة في العالم عن مستوى سطح البحر، كما صارت بحيرة منتنة لا يعيش فيها مخلوق مائي حي حتى الآن.

﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ [٧٦]: أي إنها واقعة على الطريق

---

(١) هود: الآيتان ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) انظر كتاب المعجزة والإعجاز في سورة النمل للمؤلف.

الواضح الذي كان المشركون من أهل مكة يسيرون فيه عندما يسافرون من الحجاز إلى بلاد الشام، فيمرون عليها ليلاً أو نهاراً، قال سبحانه: ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مُصْبحين. وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1]؟ ولكنهم لا يعقلون، فلا ينتفع من هذه القصص، وما فيها من عبر ومواعظ إلا المؤمنون، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿ إن في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾ [٧٧]، فالإيمان حصن المؤمن الحصين من غوائل الشذوذ وشرور الانحراف، ولا سبيل لحماية مجتمعاتنا الإسلامية منها إلا بتقوية الإيمان في القلوب، وتربية الأجيال الناشئة على مراقبة الله تعالى وخشيته، وإبعادهم عن أسباب الإثارة الجنسية الوافدة إلينا من بلاد الغرب والشرق، لإشاعة الفاحشة والشذوذ بين أبنائنا وبناتنا، وتشجيع الزواج بتسهيل أسبابه وتيسير وسائله.

وقفة تأمل

ثم عرجت الآيات على أصحاب الأيْكَة، وهم قوم شعيب في مَدْيَن، لكونهم قريبين من قوم لوط، فَمْدَين تقع إلى الجنوب من البحر الميت على الطريق المؤدي إلى الحجاز، ومَرّت الآيات عليهم من غير توقف، للتذكير بحالهم فقط، شأنها شأن المسافر المسرع، ﴿ وإن كان أصحاب الأيْكة لظالمين ﴾ [٧٨]: والأيكة: الشجر الملتف، وكان ظلمهم بكفرهم، وقطعهم الطريق على المسافرين، ونقصهم المكيال والميزان، ﴿ فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾ [٧٩] أي إن قوم شعيب وقوم لوط على طريق مبين واضح بين الحجاز والشام.

ثم توقفت الآيات قليلاً عند أصحاب الحجْر، الذين تقع منازلهم على نفس الطريق إلى الجنوب من مَدْين بلاد قوم شعيب:

(١) الصافات: الآيتان ١٣٧ ـ ١٣٨.

﴿ ولقد كذَّب أصحاب الحِجْر المرسلين ﴾ [٨٠] وهم ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام، ﴿ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ [٨١] أي آتيناهم الدلائل الدالة على صدق نبي الله صالح الذي أرسل إليهم، كالناقة التي خلقها الله تعالى من صخرة بدعاء صالح عليه السلام، فأعرضوا عنها، ولم ينتفعوا بها، ﴿ وكانوا يَنْحِتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ [٨٢] من غير خوف من الموت، لاغترارهم بطول الآمال والأعمال، ولا تزال بيوتهم الباقية حتى الآن، وهي منحوتة في داخل الصخر، تشهد على أنهم كانوا مطمئنين إلى الدنيا، غير خائفين من نوازلها ومصائبها، كما تدل على طول آمالهم فيها، وكثرة انهماكهم بشهواتها، ولعل هذا سر توقف الآيات عندهم هذه الوقفة المتأنية، ليتأمل الإنسان في أحوالهم، ويعتبر بمصيرهم.

وقد مر النبي ﷺ من بلادهم، وهو في طريقه إلى غزوة تبوك وأمر أصحابه إذا دخلوا مساكنهم أن يدخلوها معتبرين خائفين من الله تعالى وسطوته وانتقامه، فقال ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنَّع رأسه، وأسرع السير، حتى أجاز الوادي[1].

﴿ فأخذتهم الصَيْحةُ مصبحين ﴾ [٨٣] أي في وقت الصباح، ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ [٨٤] من الأموال والزروع والثمار، فالآية تدل على أن القوم كانوا على درجة عالية من الغنى والثراء، وهو سبب انشغالهم بالدنيا وطول آمالهم فيها، وغفلتهم عن الآخرة.

التعقيب الأخير

وأخيراً جاء التعقيب على ما تقدم من إهلاك الله تعالى للأمم المكذبة للرسل والمفسدة في الأرض، يبين ضرورة إهلاكهم، وتطهير

(١) صحيح البخاري.

الأرض من شرورهم، فالله سبحانه ما خلق الخلق بهذا الإتقان والإحكام والتوازن الذي تقدم بيانه في آيات السورة، للفساد والإفساد، ولا للعب واللهو، فأفعاله سبحانه منزهة عن كل ذلك، قال عزّ وجلّ: ﴿ وما خلقنا السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحق ﴾: أي إلاَّ خلقاً متلبساً بالحق والحكمة، فلا يلائمه استمرار الفساد واستقرار الشرور فيه، وقد اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعاً لفسادهم، وإرشاداً لمن بقي إلى الصلاح[1].

وقد أضاف سيد قطب رحمه الله في ظلال هذه الآية معنى جديداً مفيداً بقوله: (إن الحق عميق في تصميم هذا الوجود، عميق في تكوينه، عميق في تدبيره. . . . ولم يتلبس بتصميمه خداع ولا زيف ولا باطل، والباطل طارىء عليه، ليس عنصراً من عناصر تصميمه)[2].

فالحق ثابت أصيل، والباطل طارىء دخيل، والساعة آتية لا ريب فيها، لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ﴿ وإن الساعةَ لآتيةٌ ﴾ حيث ينتقم الله تعالى فيها من المكذِّبين والمعاندين لدعوة المرسلين، وما دام الحق قوياً وأصيلاً ﴿ فاصْفَحِ الصَفْحَ الجميل ﴾ [٨٥].

الصفح الجميل

وهكذا عادت الآيات الكريمة إلى مخاطبة النبي ﷺ، بهذا التوجيه الكريم للعفو عنهم، والصبر على أذاهم، ومقابلة عنادهم وإعراضهم بالأخلاق الكريمة الطيبة التي كان يتصف بها ﷺ.

والصفح: العفو، وفسره بعضهم بأنه ترك التثريب، أي ترك

---

(١) انظر روح المعاني ١٥/٧٧، وتفسير البيضاوي ٣/٥٧٣.
(٢) في ظلال القرآن ٤/٢١٥٣.

العتاب واللوم، وهو أبلغ من مجرد العفو، وروي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما، أن الصفح الجميل ما خلا من عتاب[1]. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ فاصْفَح عنهم، وقُلْ سلامٌ فسوف يعلمون ﴾[2].

وفي أمره عليه الصلاة والسلام بالصفح عنهم، دليل على أنه كان قادراً على الانتقام منهم، وقد يقول قائل: كيف؟ وهو، ﷺ لا يزال في مكة في قلة من أصحابه، ولكنه يستطيع أن يدعو عليهم، كما فعل غيره من الأنبياء، عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومعلوم أنه لم يدع على قومه، بل كان يدعو لهم.

ففي الآية توجيه كريم إلى دعوة الكفار بالحلم والتأني، واحتمال جفوتهم وغلظتهم، حتى يشرح الله تعالى صدورهم للإيمان، وليست منسوخة بآيات القتال، كما رأى بعض المفسرين.

وهذا التوجيه الكريم ليس خاصاً بالنبي ﷺ وحده، فحكمه يشمل كل داعية يدعو إلى الله تعالى، إذ هو ﷺ قدوتهم، ولا نجاح لهم في دعوتهم إلا بالاقتداء به، والتزام سنته ومنهجه، وقد جاءت بعض الآيات تعمم الخطاب بالصفح، كقوله تعالى:

﴿ فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ الآية[3].

الخلَّاق العليم

﴿ إنَّ ربَّك هو الخلَّاق ﴾ لجميع المخلوقات على الإطلاق، ﴿ العليم ﴾ [٦٨] بجميع أحوالهم، فلا يخفَى عليه شيء من أمرهم،

---

(١) روح المعاني ١٥/٧٧.
(٢) الزخرف: الآية ٨٩.
(٣) البقرة: الآية ١٠٩.

فعليك أن تكل الأمور إليه ليحكم بينك وبينهم، فكأن الآية تعلل ما سبق من التوجيه الكريم إلى الصفح الجميل.

ورأى بعضهم أن قوله تعالى: ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ تقرير ليوم القيامة وتأكيد له، فهو سبحانه قادر على إقامة الساعة لأنه الخلاق الذي لا يعجزه شيء، والعليم بما تمزق من الأجساد بعد الموت وما تفرق في التراب، فهو كقوله: ﴿ أوَ لَيس الذي خلق السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلقَ مثلَهم، بَلَى وهو الخلاَّق العليم ﴾[1] وبهذا تكون الآية مؤكدة لما قبلها من قوله سبحانه: ﴿ إن الساعة لآتية ﴾ ومعلِّلة أيضاً قوله: ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾، والله سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه.

السبع المثاني

وتابعت الآيات الخطاب للنبي ﷺ تبين فضل الله العظيم عليه، بما آتاه من آيات القرآن الكريم، المظهرة للحق الذي خلق الله السموات والأرض من أجله.

﴿ ولقد آتيناكَ سَبْعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ [٨٧].

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من السبع المثاني، آيات سورة الفاتحة السبع، فهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وقيل لها المثاني من التثنية، لأنها تتكرر في الصلاة، أو من الثناء، لاشتمالها على ما هو ثناء على الله عزّ وجلّ، وقيل لها: القرآن العظيم، لأنها أعظم سورة فيه، ففي الحديث الصحيح عن أبي سعيد ابن المعلَّى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم

---

(١) يسٓ: الآية ٨١. وانظر مختصر ابن كثير ٢/٣١٧.

أتيته، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلِّي، فقال: «ألَم يقل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم؟! ﴾، ثم قال: ألا أعلِّمك سورة، هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد. ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت: ألم تقل: لأعلمنَّك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآنُ العظيم الذي أوتيته»[1].

وعطف (القرآن العظيم) على (السبع المثاني) مع أن المراد بهما واحد لما علم في اللغة العربية من أن الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين، جاز عطف إحداهما على الأخرى، تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذات[2].

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى القول: بأن الله تعالى أعطى النبي ﷺ سورة الفاتحة، وأعطاه أيضاً القرآن العظيم، فيكون العطف من قبيل عطف العام على الخاص، وهو لا يتعارض مع ما ذكر في الحديث النبوي السابق، إذ يمكن أن يقال: إن تسمية الفاتحة بالمثاني وبالقرآن العظيم، لا ينافي وصف القرآن بكامله بذلك أيضاً، فقد وصف الله تعالى القرآن بصفة المثاني في قوله الكريم: ﴿ الله نزَّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ منه جلودُ الذين يَخْشَون ربَّهم ﴾ الآية[3]. فهو مثانٍ من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً.

كما أنه عليه السلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، وأبو داود والنسائي.

(٢) أضواء البيان ٣/١٩٥.

(٣) الزمر: الآية ٢٣.

فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم[1].

والأولى المصير إلى هذا المعنى، لأنه يتفق مع موضوع الآية التي نزلت تبين فضل الله العظيم على نبيه ﷺ، فقد أعطاه سورة الفاتحة، وأعطاه القرآن العظيم، وخص الفاتحة بالذكر تنويهاً بالمعاني العظيمة التي اشتملت عليها.

التحذير من زهرة الدنيا وزينتها

ومن خصه الله تعالى بهذا الفضل العظيم، وأنزل عليه سورة الفاتحة والقرآن العظيم، لا ينبغي أن يلتفت إلى الدنيا ويهتم بها إلا بالقدر الذي يبلِّغ فيها رسالة القرآن العظيم، ولهذا جاءت الآيات بعد ذلك بهذا التوجيه الكريم والتأديب الرفيع للنبي ﷺ: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾: أي لا تطمح ببصرك طموح راغب ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾: أي أصنافاً من الكفار من زهرة الدنيا وزينتها، فإنه مستحقر بالنسبة لما أوتيته[2] فهو كقوله تعالى: ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زَهْرَةَ الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورِزْقُ ربك خير وأبقى ﴾[3].

ولهذا كان ﷺ لا يحفل بالدنيا، ولا يهتم بها، بل قصر همه ووجَّه عزمه إلى تبليغ دعوة الله تعالى، مع أنَّ النهي في الآية لا يفيد الإلزام والتحريم، فليس ثَمَّة مانع شرعي يمنع النبي ﷺ من التوسع في المعيشة، ضمن حدود ما أحلَّ الله تعالى من الطيبات، وهو سبحانه

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣١٨.
(٢) انظر تفسير البيضاوي وتفسير النسفي ٣/٥٧٦.
(٣) طه: الآية ١٣١.

القائل: ﴿ يا أيها الرسلُ كُلوا من الطيباتِ واعملوا صالحاً، إني بما تعملون عليم ﴾[1].

لكنه عليه الصلاة والسلام اختار شظف العيش، وعدم التمتع بمتاع الدنيا، ودام على ذلك هو وأهل بيته حتى توفاه الله تعالى[2]، ليكون أسوة وقدوة لأصحابه ولأمته من بعده، إذ كان يخشى عليهم من أن تُفتح عليهم الدنيا، ويقبلوا على زهرتها وزينتها، ويُفتنوا بها، وهذا يفسر لنا دعوة النبي ﷺ التي قال فيها: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفي رواية: «كفافاً»[3] وقوله عليه الصلاة والسلام عندما اجتمع إليه أصحابه بعد أن سمعوا بقدوم أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بمال من البحرين، قال لهم: «أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم، كما بُسطت على مَن كان قبلكم، فَتَنافسوها كما تَنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»[4].

وقد مر معنا في أول السورة ما يفيد أن كثرة الإقبال على الدنيا وكثرة التمتع والتلذذ بطيباتها المادية، يؤدي إلى طول الأمل والانشغال بها عن عبادته سبحانه وطاعته، إذن فقد جاء هذا التوجيه الكريم للنبي ﷺ منسجماً تماماً مع موضوع السورة، ومتفقاً مع ما سبقه من الآيات الكريمة.

التواضع ولين الجانب

وقوله تعالى: ﴿ولا تحزنْ عليهم﴾ فيه توجيه آخر للنبي ﷺ كي لا يهتم بأصحاب الدنيا، ولا يحفل بهم إذا أعرضوا عن دعوته، فقد

(١) المؤمنون: الآية ٥١.
(٢) انظر كتاب النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب للمؤلف.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.

كان ﷺ يحرص على إيمانهم، ويشق عليه بقاؤهم على الكفر، بسبب مزيد شفقته عليه الصلاة والسلام حتى قال الله تعالى له: ﴿ فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ ﴾[1] وقال له أيضاً: ﴿ فلعلك باخِعٌ نفسَك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾[2] فلا ينبغي للنبي عليه الصلاة والسلام أن يهتم بهم بعد أن بلَّغهم دعوة الله تعالى، وأقام عليهم حجته، بل عليه أن يهتم بالمؤمنين، فيقبل عليهم متواضعاً لهم، ولهذا قال عزّ وجلّ له عليه الصلاة والسلام:

﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ [٨٨] أي تواضع لهم، وارفق بهم، وأقبل عليهم ولو كانوا فقراء، فهو كقوله سبحانه: ﴿ واصبر نفسَك مع الذين يَدْعُون ربَّهم بالغَداة والعَشِيِّ يريدون وجهه، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينةَ الحياة الدنيا، ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً ﴾[3].

وخفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فراخه إليه، بسط جناحيه عليهم، والتعبير عن اللين والعطف والتواضع بخفض الجناح، يدل على أن للمؤمنين مكانة كبيرة عند الله تعالى، فالله سبحانه أمر نبيه عليه الصلاة والسلام، وهو صفوته من خلقه، أن يتواضع للمؤمنين.

وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام مع أصحابه، كما قال جلّ جلاله في وصفه: ﴿ فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم، ولو كنتَ فظاً غليظَ القلب لانفضوا من حولك فاعْفُ عنهم، واستغفرْ لهم، وشاوِرْهم في

---

(١) فاطر: الآية ٨.

(٢) الكهف: الآية ٦.

(٣) الكهف: الآية ١٨.

الأمر، فإذا عَزَمْتَ فتوكلْ على الله، إن الله يحب المتوكلين ﴾[1].

وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمنين فيما بينهم، يتواضعون ويتراحمون، كما كان حال الصحابة رضي الله عنهم: ﴿ محمدٌ رسولُ الله، والذين معه أشدّاءُ على الكفار رُحَماءُ بينهم ﴾[2].

النذير المبين

ومقابل خفض الجناح للمؤمنين، أمرت الآيات النبي ﷺ أن يواجه المعاندين والمكذبين بالإنذار والتخويف، فهو الأسلوب اللائق بهم: ﴿ وقُلْ إني أنا النذيرُ المبين ﴾ [٨٩] البيِّن النذارة، فإنذاره عليه الصلاة والسلام واضح وصريح ولا خفاء فيه.

﴿ كما أنزلنا على المُقْتَسمين ﴾ [٩٠]: أي أنذركم من عذاب أليم، كالعذاب الذي أنزله الله تعالى على المقتسمين، وهم الذين تقاسموا وتحالفوا على تكذيب المرسلين، فقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وأقسموا بالله جَهْد أيْمانهم لا يبعثُ الله من يموت، بلى وَعْداً عليه حقاً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[3].

أو هم جماعة من مشركي مكة، اقتسموا مداخل مكة، لينفِّروا القادمين إليها في أيام الموسم عن رسول الله ﷺ، ويؤكده قوله بعد ذلك: ﴿ الذين جعلوا القرآن عِضِين ﴾ [٩١] أي جعلوه سحراً، أو جعلوه أجزاء متفرقة، فبعضه في نظرهم سحر، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، وبعضه كذب، وكل هذه الأقوال تدل على حَيْرتهم واضطرابهم.

---

(١) آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) الفتح: الآية ٢٩.

(٣) النحل: الآية ٣٨.

﴿ فوربِّك لنسألنَّهم أجمعين ﴾ [٩٢] أقسم الله تعالى بذاته المقدسة رداً على أولئك المقتسمين المكذبين والمعاندين، ليسألنَّهم يوم القيامة سؤال التوبيخ والتقريع ﴿ عما كانوا يعملون ﴾ [٩٣] في الدنيا من الكفر والفجور.

إعلان الدعوة

ثم أمرت الآيات النبي ﷺ بمواجهة المشركين علناً مع التحدي بعقيدة التوحيد عقائدهم الفاسدة والباطلة: ﴿ فاصْدَعْ بما تُؤمر ﴾: أي اجهر بما أمرك الله به، وواجه الناس به، وبلِّغهم وحي الله تعالى، معلناً ذلك من غير استخفاء وخوف، أو فَرِّق بين الحق والباطل بما أمرك الله تبليغه، وأصله من الصَّدْع، بمعنى التفريق والشق.

وكانت هذه الآية فاصلة بين مرحلتين من مراحل الدعوة، إذ كان النبي ﷺ قبلها مستخفياً مع أصحابه حتى نزلت، فخرج هو وأصحابه[١].

قال ابن إسحاق في السيرة: ثم إن الله عزّ وجلّ أمر رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادىء الناس بأمره، وأن يدعو إليه وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين، فيما بلغني، من مبعثه ثم قال الله تعالى له: ﴿ فاصْدَعْ بما تُؤمر ﴾[٢].

﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ [٩٤] أي لا تلتفت إلى المشركين، ولا تأبه بمعارضتهم وعنادهم ولا تَخَفْهم، فإن الله كافيك مكرهم

---

(١) تفسير الخازن ٣/٥٧٩.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٣٧.

وحافظك من كيدهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿ يا أيها الرسول بلِّغ ما أُنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغتَ رسالتَه، والله يَعْصِمُك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾[1].

وتأتي المعونة من الله تعالى على قدر التكليف والمؤنة، فعندما كلفه بإعلان الدعوة والجهر بها أخبره سبحانه بكفايته وحمايته عليه الصلاة والسلام من كيد المستهزئين وأذاهم، فقال جلّ جلاله: ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [٩٥] من كبار المشركين، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، وغيرهم، الذين كانوا يبالغون في أذى رسول الله ﷺ والاستهزاء به، وقد أهلكهم الله تعالى جميعاً، وكُفي ﷺ شرهم.

﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخرَ فسوف يعلمون ﴾ [٩٦] عاقبة شركهم وكفرهم يوم القيامة.

منابع القوة

ثم أرشده سبحانه إلى منابع القوة التي يستمد منها النبي ﷺ القوة والعزيمة للقيام بالأعباء الثقيلة التي كلَّفه الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿ ولقد نعلم أنك يَضيقُ صدرُك بما يقولون ﴾ [٩٧] من الطعن في القرآن الكريم والاستهزاء بك، ﴿ فسبِّح بحمد ربك ﴾ كي يذهب عنك ما تجده في صدرك من ضيق وحزن، نزِّه ربك جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع الثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال. فالتسبيح: تنزيه الله عن كل صفات النقص، والحمد: الثناء على الله تعالى بكل صفات الكمال، بأن تقول: سبحان الله والحمد لله، أو: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

---

(١) المائدة: الآية ٦٧.

وهذا يدل على أن ترديد مثل هذه الأذكار مع خشوع القلب، له تأثير كبير في شرح الصدر، وتنفيس الهم، وتخفيف الحُزْن، كما أنه يمد الإنسان بقوة وعزيمة، تكون عوناً له بإذن الله على مواجهة المصاعب والنوائب.

والجدير بالذكر أن الإمام البخاري رحمه الله تعالى قد ختم كتابه الجامع الصحيح بالحديث النبوي الشريف:

«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

﴿ وكن من الساجدين ﴾ [٩٨] أي المصلِّين، عبَّر عن الصلاة بالسجود لأن فيه غاية التذلل والخضوع لله تعالى، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، كما قال ﷺ.

فالإكثار من الصلاة، وخاصة في جوف الليل، ومن التسبيح والحمد، وغير ذلك من الأذكار، يؤدي بفضل الله ورحمته إلى انشراح النفس وإزاحة الضيق والهم عن الصدر، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبُهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[١] ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة، وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين ﴾[٢]، وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[٣].

اليقين والسراب

﴿ واعبد ربك ﴾: أي دُم على ما أنت عليه من عبادته سبحانه وطاعته، فلا قيمة لحياة الإنسان ووجوده بدون عبادة الله تعالى وطاعته، فيها يدرك جوهر حياته وحكمة وجوده.

---

(١) الرعد: الآية ٢٨.

(٢) البقرة: الآية ٤٥.

(٣) رواه أبو داود وأحمد من حديث حذيفة بن اليمان.

﴿ حتى يأتيك اليقين ﴾ [٩٩]: أي حتى يأتيك الأجل الموعود الذي لا شك فيه، وهو الموت، ومن رحمته سبحانه أنه جعل أجل الإنسان المقدر لموته مجهولاً بالنسبة للإنسان، فلو كشف الله تعالى للناس آجالهم، وبين لهم نهاية أعمارهم، لتعطَّلت سُبل حياتهم، وتوقف سعيهم، وشُلَّتْ حركتهم، فما أعظم رحمة الله بنا!!

ولكن لا ينبغي أن يحملنا جهلنا بموعدنا مع الموت على نسيانه والغفلة عنه، فتطغى علينا آمال كبيرة لا تتسع لها حياتنا، ونتخطى فيها آجالنا، ثم يأتينا الموت فيقطعنا عنها، فنقع في الحسرة الدائمة. الحسرة على حياة أضعناها، ونحن نركض خلف آمال لا تتسع لها حياتنا، فما هي إلا سراب خادع، سعينا طويلاً وراءه، وركضنا كثيراً من أجل تحصيله، ثم سقطنا على الطريق مع موعدنا المجهول، ونكون كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بِقِيعةٍ يحسبُه الظمآنُ ماءً، حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً، ووجد الله عنده فوفَّاه حسابَه، والله سريع الحساب ﴾[1].

ما أكثر الذين تنسحب عليهم هذه الآية، أولئك هم تجار الخيال وأسرى الآمال[2].

وحتى لا نكون منهم علينا أن نتذكر دائماً قول الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ واعبدْ ربك حتى يأتيك اليقين ﴾، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ، فهو عام وشامل، وغيره عليه الصلاة والسلام أولى به، لأنه عليه الصلاة والسلام معصوم عن الغفلة، فلا تكون منه فترة عن العبادة، وانقطاع عن الطاعة أبداً، ولما سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ قالت:

(١) النور: الآية ٣٩.

(٢) انظر كتاب: حياتنا والموعد المجهول للمؤلف.

(كان عمله دِيمة ـ مستمراً ـ وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع؟)[1] وقال ﷺ: «إنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله ما دُووِم عليه وإن قلَّ»[2].

التكليف لا يسقط عن المكلفين

وفي الآية رد على بعض الملحدين، القائلين بسقوط التكليف بالعبادة عن الذين يَصِلُون ـ بزعمهم ـ إلى درجة الكشف والشهود، لأن العبادة ـ بزعمهم أيضاً ـ ليست إلا للمحجوبين، ولقد مرقوا بذلك من الدين، وخرجوا من ربقة الإسلام وجماعة المسلمين[3].

قال ابن كثير رحمه الله: ويستدل بهذه الآية على أن العبادة كالصلاة ونحوها، واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلِّي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جَنْب».

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا ـ هم وأصحابهم ـ أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد من اليقين ههنا الموت[4].

---

(١) و(٢) متفق عليه.

(٣) انظر روح المعاني ١٥/٨٧.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢/٣٢١.

ولا تقتصر العبادة في الإسلام على الصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنما تمتد إلى كل شؤون الحياة، فطاعة الله تعالى فيها عبادة، وهذه هي عبادة النبي ﷺ التي بنى بها أفضل المجتمعات وأخرج خير الأمم، وأنتج أنضر الحضارات الإنسانية وأزكاها وأزهاها.

أسأله سبحانه أن ينور بصائرنا وقلوبنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله أولاً وآخراً.

المـــراجع

- كتب السنة المعتمدة.
- تفسير الألوسي: (روح المعاني)، دار الفكر بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، الطبعة الثانية.
- مختصر تفسير ابن كثير: اختصار الصابوني.
- فتح القدير: للشوكاني، توزيع مكتبة المعارف بالرياض.
- تفسير البيضاوي: المطبوع مع مجموعة التفاسير، دار إحياء التراث العربي.
- تفسير النسفي: المطبوع مع مجموعة التفاسير، دار إحياء التراث العربي.
- تفسير الخازن: المطبوع مع مجموعة التفاسير، دار إحياء التراث العربي.
- في ظلال القرآن: لسيد قطب، دار الشروق.
- أضواء البيان: للشنقيطي، طبعة الرياض.
- تفسير الفخر الرازي: (التفسير الكبير)، دار الفكر مصورة.
- سيرة ابن هشام.
- نقض أوهام المادية الجدلية: للبوطي، دار الفكر دمشق.
- خلق الإنسان بين الطب والقرآن: للبار.
- القرار المكين: لمأمون الشقفة.
- علم الفلك: لمحمد رضا مدور.
- النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب.

المعجزة والإعجاز في سورة النمل.

الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.

حياتنا والموعد المجهول. جميعها للمؤلف، دار القلم دمشق.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
الفصل الأول: الأمل والحياة ٩
﴿ ألتر ﴾ ١١
وِدادة وحسرة ١٢
الدنيا وسيلة لا غاية ١٤
آمال وآجال ١٥
الكتاب المعلوم ١٦
إعراض وجحود ١٧
حفظ القرآن الكريم ١٨
محاولات فاشلة ١٩
انقطاع الوحي وتمام النعمة ٢٠
البشارة الخالدة ٢١
قلوب المجرمين ٢٢
باب من السماء ٢٣
الفصل الثاني: التوازن والحياة ٢٥
تمهيد ٢٧
السماء في القرآن ٢٨
الجمال في المكونات ٣٠
حرس في السماء ٣١

الشهب المشتعلة ٣٢
الجبال الرواسي ٣٣
التقدير والتوازن ٣٤
خزائنه سبحانه ٣٦
الرياح اللواقح ٣٧
خزائن الماء في السماء والأرض ٣٩
الوارث عزّ وجلّ ٣٩
المستقدمون والمستأخرون ٤٠
الفصل الثالث: القصة الأولى الإنسان والشيطان ٤٣
التراب والنار ٤٥
نَفْخ الروح ٤٦
خطأ جسيم ٤٨
سجود الملائكة ٤٩
إباء إبليس ٥٠
نقاط الضعف البشري ٥١
مطايا الشيطان ٥٢
سبيل النجاة ٥٣
أبواب جهنّم ٥٤
النشوء والارتقاء ٥٥
الفصل الرابع: القصة الثانية الأمل بالله تعالى ٥٩
الرجاء والخوف ٦١
المغفرة والعذاب ٦٢
ضيف إبراهيم ٦٤
البشرى ٦٥
مهمة المرسلين ٦٧
استباق الحوادث ٦٨
في بيت لوط ٦٨

الصبح القريب
التصدّي ٦٩
مقام رفيع ٧٠
سكرة لا ثورة ٧٢
الاستئصال ٧٣
الحصن الحصين ٧٤
وقفة تأمّل ٧٥
التعقيب الأخير ٧٦
الصفح الجميل ٧٧
الخلّاق العليم ٧٨
السبع المثاني ٧٩
التحذير من زهرة الدنيا وزينتها ٨٠
التواضع ولين الجانب ٨٢
النذير المبين ٨٣
إعلان الدعوة ٨٥
منابع القوة ٨٦
اليقين والسراب ٨٧
التكليف لا يسقط عن المكلَّفين ٨٨
المراجع ٩٠
الفهرس ٩٢

مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيم

سلسلة في التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم تبرز الوحدة الموضوعية لآيات السورة القرآنية وما بينها من اتساق واتفاق.

صدر منها حتى الآن:

١ ـ النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب.
٢ ـ المعجزة والإعجاز في سورة النمل.
٣ ـ العواصم من الفتن في سورة الكهف.
٤ ـ الحلال والحرام في سورة المائدة.
٥ ـ المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء.
٦ ـ الطريق إلى الأُمة المسلمة في سورة الحج.
٧ ـ الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس.
٨ ـ الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحِجْر.

تحت الطبع

٩ ـ التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران.
١٠ ـ التوحيد والتنزيه في سورة مريم.
١١ ـ الوحي والنبوّة والعلم في سورة يوسف.
١٢ ـ بصائر الحق في سورة الأنعام.

اقرأ للمؤلف

ـ الأنساب والأولاد:
دراسة لموقف الشريعة الإسلامية من التلقيح الصناعي
وما يسمى بأطفال الأنابيب.

واقرأ له في التراجم

ـ عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام.
ـ عبدالله بن عباس الإمام البحر وعالم العصر.
ـ حقيقة موقف الصحابة من معركة الجمل ومعركة صفين.

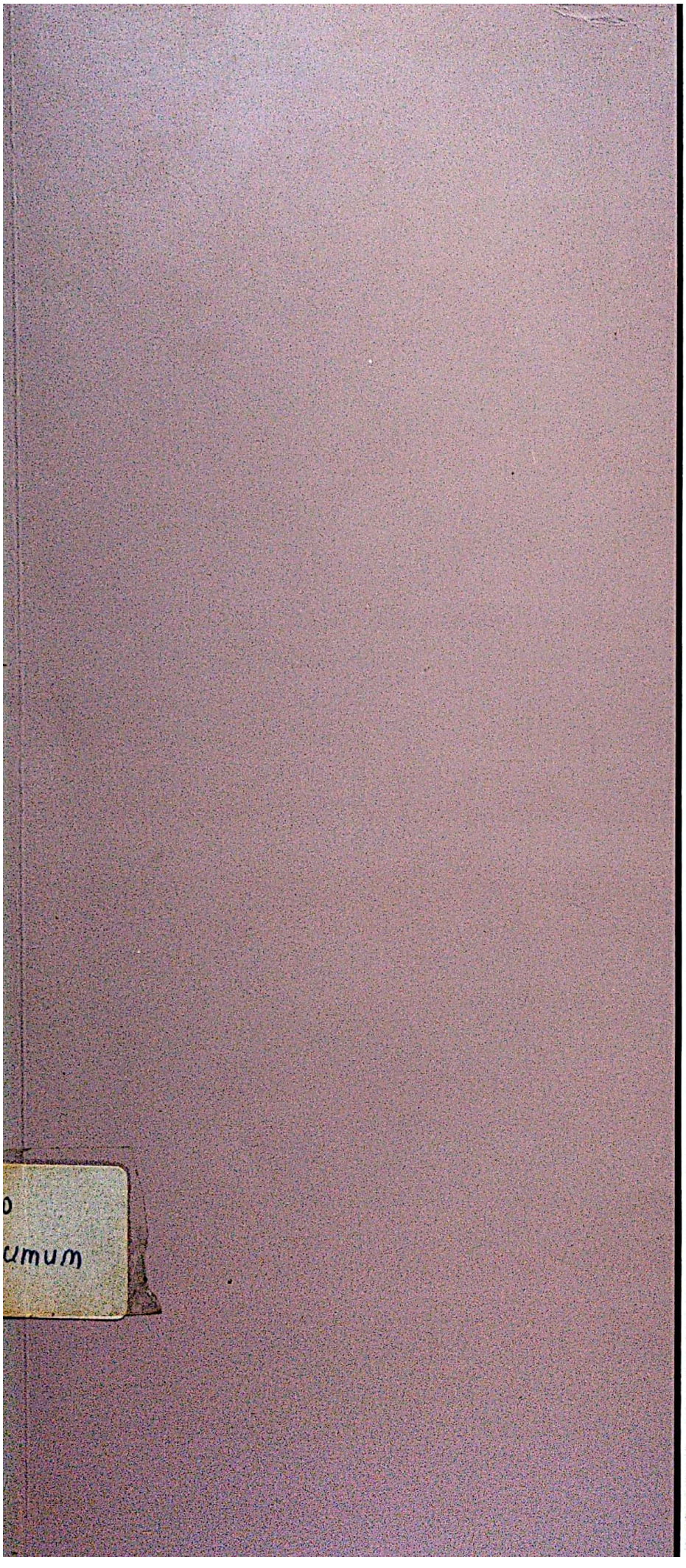

0
umum

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم : دمشق : ص ب : ٤٥٢٣ ت : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية : بيروت : ص ب : ٦٥٠١ / ١١٣